المكتبة الثقافية
٩٢

الصراع الأدبى بين العرب والعجم

الدكتور محمد نبيه حجاب

وزارة
الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول سبتمبر ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- ييسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه .

الكتاب القادم

حرب الإنسان
ضد الجوع وسوء التغذية

الدكتور محمد عبد الله العربي

١٥ سبتمبر ١٩٦٣

الثمن ٢ ص

مطابع دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

٩٢

الصراع الأدبى
بين العرب والعجم

الدكتور محمد نبيه حجاب

وزارة
الثقافة والإرشاد القومى
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول سبتمبر ١٩٦٣

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

فى الجاهلية

كانت النزعة العدائية بين العرب والعجم متأصلة فى نفوس الطرفين منذ القدم . . .

فالعرب كانوا يرون أنهم أشرف الأجناس حسباً ، وأعرقهم نسباً وأنقاهم دما ، وأكرمهم عنصراً ؛ فضلا عن أنهم فرسان الصحراء وأبطال الهيجاء ، وأهل المروءة والنجدة والكرم والإيثار والإباء والوفاء . . .

والعجم ، وبخاصة الفرس والروم ، كانوا يرون بلادهم منذ القدم مهد الحضارة ، ومعدن الثقافة ، كما يرون أنفسهم سادة العالم شرقاً وغرباً ؛ فقد عاشوا فى ظلال الحضارة قرونا طوالا والتاريخ طفل فى المهد ، وكان منهم الأكاسرة والقياصرة والنماردة . . . وبهذا وذاك شمخوا على العرب ، وجاهروا بأنهم دونهم علما وحكما وحضارة ، لا يعرفون لأنفسهم وطناً ولا مقراً ضنت عليهم السماء بمائها ، فعاشوا فى فقر وعوز بين صخور تسفعها الهاجرة ، ورمال تغلى الدم وتصهر العظم . ومن ثمَّ كانوا — كما يرون — قساة القلوب ، غلاظ الأكباد . الحق عندهم للقوة ، والغلبة للسيف ، والويل للضعيف .

هكذا كان كل منهما ينظر إلى الآخر ، وبمثل هذا فاضت « أحاديث الوفود عند كسرى » إذ وقف كل منهم يشيد بقومه، ويسمو بهم على سائر الأجناس، يقول صاحب العقد :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولا غيرها.

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — : يا نعمان : لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم . . . فوجدت للروم حظاً فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها ، ويردّ سفيهها . . . ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها وكثرة عددها وكذلك الصين فى اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها ، وفروسيتها ، وهمتها فى آلة الحرب ، وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها . . . ، والترك والخزَرَ على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون — لهم ملوك تضمّ قواصيهم ، وتدبر أمرهم ... ... ولم أر للعرب شيئا من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم

ولا قوة . ومع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها محِلَّتَهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الجائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة . قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها ؛ فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع ؛ لثقلها وسوء هضمها ، وخوف دائها . وإن قرى أحدهم ضيفا عدّها مكرمة ، وإن أطعم أكلة عدّها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية — اليمن — التى أسس جدّى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن لها مع ذلك آثارا ، ولبوسا — دروعا — وقرى وحصونا ... ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلّة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : حُقَّ لأمةٍ الملك منها أن يَسْمَو فضلها ، ويعظم خطْبها ، وتعلو درجتها . . . إلا أن عندى جواباً فى كلّ ما نطق به الملك ، فى غير ردّ عليه ولا تكذيب له فإن أمّنتنى من غضبه نطقت به .

قال كسرى : قلْ فأنت آمن .

قال النعمان : « أما أمتك — أيها الملك — فليست تُنَازَع في الفضل ، لموضعها الذى هى به ، من عقولها وأحلامها ... وأما الأمم التى ذكرت فأىّ أمة تقرنها بالعرب إلاّ فَضَلَتْها. قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها . وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ووفائها .

وأما عزها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجُنّتهم السيوف وعدتهم الصبر ، إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعَرف فضلهم فى ذلك على غيرهم : من الهند المنحرفة ، والصين المُنْخَفَة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة .

وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليُسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا . حاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به

أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه ، ولا ينتسب إلى غير نسبته ، ولا يدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها ، فإن أدناهم رجلا ، الذى تكون عنده البكرة والناب ، عليها بلاغه فى حموله وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق ، الذى يكتفى بالفلذة ، ويجتزىء بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها بما يكسبه حسنَ الأحدوثة وطيب الذكر .

وأما حكمة ألسنتهم ، فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم الأشياء ، وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ، ما ليس لشىء من ألسنة الأجناس . ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء ، ومعادنهم الذهب والفضة ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها ، فإنهم مستمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ؛ فيلقى الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى .

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومىء الإيماءة فهى وَلْثٌ — عهد — وعقدة ، لايحلها إلا خروج نَفَسِه ، وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدَيْنه ، فلا يغلق رهنه ، ولا تُخْفَر ذمته . . .

وأما قولك أيها الملك : يئدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج .

وأما قولك : إن طعامهم لحوم الإبل — على ما وصفت منها — فما تركوا مادونها إلا احتقاراً لها ، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها ألبانا وأقلها غائلة .

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

ثم تعاقبت الخطباء ، وانطلقت الألسنة تشيد بمجد العرب ؛ مما أحنق صدر كسرى ، وانضج قلبه غيظاً ، وإن بدا غير عابىء بالقول ، أو مقيم له وزناً .

فلما وقف الحارث بن عباد ، وأخذ يصول ببأس الحديد ويقول لعاهل الفرس :

« خيولنا جمّة ، وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير ربض ، وإن طلبتنا فغير غُمّض ، لا ننثني لذعر ، ولا نتنكر لدهر . رماحنا طوال ، وأعمارنا قصار » ضاقت نفس كسرى ، ولم يستطع صبراً .

فقال : أنفسٌ عزيزة ، وأمة ضعيفة .

فقال الحارث : أيها الملك . وأنّى يكون لضعيف عزة ؟ ! أو لصغير مِرّة ؟ ! وإذ ذاك تراجع كسرى وقال : لو قصر عمرُك لم تستولِ على لسانك نفسُك .

فقال الحارث : أيها الملك . إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة ، مغرراً بنفسه على الموت ، فهى منيّة استقبلها ، وجنان استدبرها ، والعرب تعلم أنّى أبعث الحرب قدما ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض خضخاضها ؛ حتى أنغمس فى غمرات لججها فأستمطرها دماً ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم .

فقال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق من لسانه .

ولما رأى علقمة بن علاثة العامرى ما آل إليه الأمر بين الفريقين ، أراد أن يخفف من حدة التوتر فنهض قائلا :

« إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قرّبتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك . . . كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف . . . أيها الملك . من يبلُ العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب ، فإنها الجبال الرواسى عزّا ، والبحور الزواخر طُميّا ، والنجوم الزواهر شرفا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك » فقال كسرى : حسبك أبلغت وأحسنت .

ويبدو أن ذلك لم يشف الغليل من قلب « قيس بن مسعود الشيبانى » فنهض من فوره يصل من حديث علقمة ما انقطع ويقول :

« ما أحقّنا — إذ أتيناك — بإسماعك مالا يحنق صدرك ، ولا يزرع لنا حقداً فى قلبك . . .

لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ، ومن حضر من وفود الأمم أنّا فى المنطق غير

محجمين ، وفى الناس غير مقصرين ، إن جورينا فغير مقصرين ، وإن سومينا فغير مسبوقين » .

فقال كسرى — وهو يتميز من الغيظ — : غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين — يشير بذلك إلى أحد مواقفه بسواد العراق — .

قال قيس : أيها الملك : ما كنت فى ذلك إلا كوافٍ غُدِر به ، أو كخافر أخفر بذمته .

قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لذليل خفارة .

قال قيس : ما أنا فيما أخفر من ذمتى أحق بإلزامى العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتهك من حرمتك . . . فلم يسع كسرى إلا الإقرار بذنبه والاعتراف بخطئه ، وأخذ يقول : « إن من ائتمن الخانة ، واستنجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالنى » .

هذه صفحة من صفحات « الصراع الأدبى » بين الطرفين فى العصر الجاهلى ، وفيها تجلت « القومية العربية » بأجلى معانيها وثمة مواقف أخرى خالدة ، تفيض بهذه النزعة القومية التى تسرى فى دماء العرب — من قديم — سريان الماء فى العود . . . فمن ذلك :

١ — موقف النعمان بن المنذر من كسرى أبرويز حينما أراد أن يصهر إلى العرب . فقد أبى النعمان وقال لرسول الملك : أما في عين السواد وفارس ما يغنيه عن بناتنا ؟ وسأل الرسولَ عن العين فقال : هى البقر . فغضب كسرى وحقدَها على النعمان واحتال لمقتله .

٢ — وفى قصة « البراق وليلى العفيفة » ما يدل على ترفع العرب عن مصاهرة العجم ولو كانوا ملوكا أو أمراء . .

فإن ليلى هذه — بنت لكيز — كانت ابنة عم البراق ومخطوبته ، ولما سباها الفرس ، واحتملوها إلى كسرى لم تستسلم ، وآثرت العيش بين مضارب الخيام عزيزة حرة ، عفيفة طاهرة . . .

وفى هذا البلاط المريب أخذت تذرف الدمع قطرات ، وتنوح مستنجدة « بالبراق » بشعر حزين يذكى لهيب الأسى ، ويثير الشجون ، فمن ذلك قولها للبراق :

ليت للبراق عيناً فترى
ما ألاقى من بلاء وعنا
يكذب الأعجم ما يقربنى
ومعى بعض حساسات الحيا

قيدونى . غللونى . وافعلوا
كلّ ما شئتم جميعاً من بلا
فأنا كارهة بغيتكم
ومرير الموت عندى قد حلا
قد لعدنان — فُديتم — شمروا
لبنى الأعجام تشمير الوحى
واعقدوا الرايات فى أقطارها
واشهروا البيض وسيروا فى الضحى
واحذروا العار على أعقابكم
وعليكم ما بقيتم فى الورى

فلما علم بذلك « البراق » خنقته العبرة ، وخفّ لنجدتها مستنفراً الحمية العربية ، مستنهضا الهمم الفتية التى استطاعت — بحد السيف — أن تخلصها من أيدى مغتصبيها ، ومن شعره فى ذلك قوله :

لم يبق — يا ويحكم — إلا تلاقيها
ومسعر الحرب لاقيها وآتيها
أيها الراكب المجتاز ترفل فى
حزن البلاد ، وطوراً فى فيافيها

أبلغ بنى الفرس عنا حين تبلغهم
وحى كهلان أن الجند عافيها
لا بد قومى أن ترقى ، وقد جهدت
صعب المراقى بما يأتى مراقيها

وقوله :

أمن دون ليلى عوقتنا العوائقُ
جنود وقفر ترتعيه النّقانق
وعُجْمٌ وأعراب وأرض سحيقة
وحصن ودور دونها ومغالق
بها وغرّ عنى « لكيز » بجهله
ولما يعقه عند ذلك عائق
وحلنى مالا أطيق إذا ونت
بنو مضر الحمر الكرام الشقائق
فمن مبلغ « بزد الأيادى » وقومه
بأنى بثأرى لا محالة لا حق
ستسعدنى هذى الصوارم والقنا
وتحملنى القبّ العتاق السوابق

رمى الله من يرمى الكعاب بريبة
ومن هو بالفحشاء والمكر ناطق

وفى مثل هذا الشعر الحماسى تجلت « العصبية العربية » ، وإنها لنتيجة حتمية لقوم يعتزون بقوميتهم ، ويستطيلون بأصولهم على العجم .

وإذا كانت العداوة بين الطرفين إذ ذاك فى أقل مراتبها لضعف الاتصال بينهما فى العصر الجاهلى فقد ظلت هذه العصبية كامنة فى النفوس ، تظهر حينا ، وتختفى أحيانا بحسب الدواعى والظروف ، فلما كان « يوم ذى قار » ، وانتهى الأمر فيه بنصر العرب بدأ الفرس يشعرون — لأول مرة — أنهم أمام قوة بئيسة تهدد حياتهم ، فجاشت نفوسهم بالعدواة ، وتحركت بالعصبية . أما العرب فقد أخذوا — وقد زهاهم النصر — يستطيلون به على العجم ، وحق لهم ذلك فقد كان — كما يقول الرسول الكريم — أول يوم انتصف فيه العرب .

ولعل هذا ما حدا بالمستشرق « روبرت ممث » أن يقول (إن النزعة العنصرية من الصعب أن تكون فى مبدئها أقدم من يوم « ذى قار سنة ٦١١ م) وهو إلى حد ما قول صادق من حيث إنه كان أول فرصة فسيحة لظهورها . . ظهرت بين

صليل السيوف ، وخفق البنود ، كما ظهرت على ألسنة الشعراء والرواة فى كل مكان ، وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ... فمن ذلك قول الأعشى :

لو أنّ كل معدّ كان شاركنا
في يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف
لما أتونا كأنّ الليل يقدمهم
مطبق الأرض يغشاها لهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة
من الأعاجم فى آذانها النطف
لمّا أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
وخيل ، فما تنفك تطحنهم
حتى تولوا . وكاد الليل ينتصف

وقوله :

أتانا عن بنى الأحرا ر . قول لم يكن أمما
أرادوا نحت أثلتنا وكنا نمنع الخطما

وثمة لون آخر من ألوان الشعر لم يقف عند حد الفخر بالفروسية ، والتغنى بالبطولة ، والزهو على الأعاجم بما أحرزوه

من نصر ؛ بل تعدى ذلك إلى الفخر بالحضارة العريقة ، والثقافة العميقة ، فضلا عن العمران والسلطان . على أن ذلك اللون لم يبدُ إلا فى الشعر اليمنى ، إذ اليمن كما نعلم مهبط الحضارة من قديم ألم يكن لهم فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ؟

إن « التبابعة » الذين عاشوا فى كنف الخصب والنماء قد بسطوا نفوذهم على الأعاجم شرقا وغربا ، من الصين إلى القسطنطينية ، فحق لهم إذن أن يفخروا بكل هذا .

ومما سجله الشعر فى ذلك وصية « أسعد بن ملكى كرب » حسان ، وهو على فراش الموت ، وفيها يفخر بقومه ، وملكه الواسع الذى شرق وغرب فى ديار الأعاجم ؛ حتى اضطر الفرس والروم أن يعطوا — له — الجزية عن يد وهم صاغرون . استمع إليه يقول :

حضرت وفاةُ أبيك يا حسانُ ... فانظر لنفسك فالزمان زمانُ

واعلم بنىّ بأن كل قبيلة ... ستذل إن نهضت لها « قحطان »

هى أمة عادية يمنية ... شمخت بطول أصولها الأغصان

فبها ملكنا الأرض عن أقطارها
حتى أتت بخراجها البلدان
قحطان أسدٌ سادة عربية
غلبٌ تهاب لقاءها الأقران

وفى نشوة الظفر ، وزهو المنتصر يقول :

فلكت أرض الروم أملك بلدة
ومضى هرقل وأسلم الصلبان
وقتلتُ أملاك الأعاجم كلها
وخبت — برغم أنوفها — السودان
ونفخت سمّى فى العراق فأحرقت
أقصى مساكن أهلها النيران
ودخلت فى الظلمات أعظم مدخل
من حيث لازرع ولا أوطان
ومعى مقاول حمير وملوكها
والأزد أزد شنوءة وعمان
ومعى قضاعة والغطارف خثعم
وبجيلة وذوو العلا غسان

ومعى فوارس كندة ورجالها
والشمّ مذحج والذرا همدان
سرت فؤادى فى المواطن حمير
وشفته آساد الوغى كهلان
أرضَ الظلام غزوا ، وحولى منهم
عصب تضيق بجمعها الغيطان
قلت اقبضوا ؛ فإذا الحصى بأكفهم
والدّر والياقوت والمرجان
ثم انصرفت بحمير وجموعها
ثلج الفؤاد ، وإننى جذلان

* * *

لو هاب فرعونَ الفراعين قبلنا
أو ذو المنار لهابنا الحدثان
جدّى المتوج « عبد شمس » ذو العلا
شيخ الملوك ، ومحتدى غمدان
وأبو كرب ، وجدى ناشر
ذو التاج ينعم ، وابنه تاران

نحن الملوك بنو الملوك أقاول
ولنا عظيمُ الملك والسلطان

* * *

إياك « يا حسان » والعجز الذى
يذرى بمثلك والعروض تُصان
لا تهدمن بناء قومك واحتفظ
إذ قد ألمَّ من الفراق أوان
قولى لحمير : اقبرونى قائماً
من حولى الحبلات والرمَّان
وافطن لكاهنتى فإن كلامها
حق ، وإن قبورنا « غيمان »

وبمثل هذا يقول أبو كرب شمر بن ياسر الذى غزا الصين ، وبنى سمرقند وحيرّ الحيرة كما يقول الهمدانى صاحب الإكليل :

أنا شمر أبو كرب اليمانى
جلبت الخيل من يمن وشام
لآتى أعبُداً مردوا علينا
وراء الصين فى عثم ويام
فنحكم فى بلادهمُ بحكم
سواء لايجاوزه غلامى

ويقول عمرو بن تبان :

فضلنا الناس كلهمُ جميعاً
كفضل الإبزىِّ على اللجين

ملكنا بعد داود زمانا
وعبّدنا ملوك المشرقين

زبرنا فى ظفار زبور مجد
ليقرأه قروم القريتين

فنحن الطالبون لكل وتر
إذا قال المقاول أين أين ؟

فى الإسلام

كانت الجزيرة العربية – قبل الإسلام — تموج بمختلف العقائد والديانات ، فمنهم من عبدوا الأوثان التى تقربهم إلى الله زلفى . ومنهم الزنادقة الذين كانوا على مجوسية الفرس يعبدون النار ويقولون بإلـهين اثنين لهذا الكون : إله الخير ، وإله الشر ، ومنهم الدهرية الذين ينكرون الخالق ، وما وراء الموت من بعث ونشور ويقولون : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وقلّ منهم مَنْ كان على دين سماوى : نصرانى أو يهودى . . . ومن ثمّ لم يكن لهم فى هذه الفترة من الزمن — دين موحّد قويم يجمع كلمتهم ، ويأخذ بيدهم من ظلمات الشرك إلى أنوار اليقين .

فلما جاء « الإسلام » كان ظهوره حداً عملياً فاصلا بين عهدين : عهد الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، وعهد الألفة والتآخى ،والتوحيد الذى ضمن لهم الأمن والاستقرار والسلام والوئام ...

وإذ جاءت تعاليمه السمحة تقرر — فى قوة ووضوح — أن السلام والإسلام لفظان مترادفان لمعنى واحد يجمع القيم

الخلقية ، والمثل الإنسانية من عدل وإنصاف وإيثار ، فقد صادفت هوى فى القلوب ، ودخل الناس فى هذا الدين السماوى القويم زرافات ووحدانا . ويتلفت الزمن فإذا الأمة المتداعية المتنافرة أمة متحدة الكلمة ، متحدة الهدف ، متحدة العقيدة معتصمة بحبل الله ، تجاهد ما وسعها الجهاد فى سبيل الله .

وإذ كان هذا الدين الحنيف دين قول وعمل معا ، ولم يكن مجرد أدعية وطقوس كغيره من الأديان فسرعان ما ظهرت آثاره وتجلت على الفور ثماره ، وتلفت الزمن مرة أخرى فإذا الحضارة الإسلامية الناشئة تناصى حضارة الفرس والروم وأخيراً تزاحم الحضارتين العريقتين ثم تطويهما عجلة الفتح الإسلامى ويقف سعد بن أبى وقاص على أطلال الفرس يقول :

« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأرثناها قوما آخرين » .
ولم يكن هؤلاء القوم غير العرب الفاتحين الذين قابلوا العدوان بالعدوان ، وسالت على حد السيوف دماؤهم فى سبيل الله ، حين هزموا الروم فى بحر الروم ... ، وظهروا على الفرس فى أرض الفرس ... ، ومكنوا لدينهم الحنيف فى ديار الأعاجم .

الأعاجم والإسلام :

دان الكثيرون من الأعاجم بالدين الجديد عن عقيدة وإيمان، لما رأوه من تعاليمه السمحة ، ومبادئه العادلة التى تضمن لهم حياة حرة كريمة طالما تمنّوها ، ولم يظفروا بها فى سالف أيامهم ، وقد نعموا بذلك أيام الخلفاء الراشدين الذين ضموهم إلى نفوسهم ضمة العضو إلى الجسد .

وإذ كانوا حديثى عهد بالإسلام فقد أغدقوا عليهم العطاء طبقا لنظام الشريعة الغراء الذى يقضى بذلك تأليفا لقلوبهم .

فأبو بكر قد رسم سياسته بقوله : (ألا إن قواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه) وقد أشار المؤرخون إلى أنه كان يقسم العطاء بالتساوى لا فرق بين عربى وعجمى ، ولا بين سابق فى الإسلام ولاحق، ولما غضب أهل السبق لذلك قال . (أما ما ذكرتم من السبق والفضل فما أعرفنى به ، وإنما ذلك ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش والأسوة فيه خير من الأثرة) .

أما عمر بن الخطاب فقد كان كما وصفه « نيكلسون Nicholson » بقوله : (كان ورعاً متقشفا لا يخشى فى القيام بالواجب لومة لائم ، وكان لا يحابى أحداً ، متحمساً للحق ؛

كما كان قاضياً شديد النزاهة ، ولا غرو فقد ولد حاكما بطبعه) وقد أشار البلاذرى إلى تسويته بين العرب والعجم بقوله : إنه كتب للأجناد يقول : (ومن اعتقتم من الحمراء — الفرس — فأسلموا فألحقوهم بمواليهم ؛ لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة واحدة فاجعلوهم أسوة فى العطاء) .

ولما ميّز أسامة بن زيد المولوى فى العطاء وقال له ابنه عبد الله : فضلت علىّ أسامة وقد شهدت ما لم يشهد قال : (إن أسامة كان أحب إلى رسول الله من ابنك) .

وكذلك كان الإمام على رضى الله عنه ، لا يفضل شريفاً على مشروف ، ولا عربياً على أعجمى . وبهذه السياسة الرشيدة ، ولهذه العدالة الشاملة أقبل « الموالى » على الإسلام الذى خلصهم من حكم الفرد وطغيانه ونظام الطبقات الذى كان يسود ديار الأعاجم .

غدر الموالى :

كان المنتظر والحال هذه أن نرى « الموالى » يبادلون العرب وفاء بوفاء ، ولعل الكثيرين منهم كانوا كذلك ، إلا أن هناك نفراً منهم ممن أسلم وفى قلبه مرض ، قد أكل الحقد قلبه فعز عليه أن يزول ملكهم العتيد ، ويتلاشى سلطانهم أمام سلطان العرب

البداة الذين هم دونهم علما وحضارة ، فأجمعوا أمرهم على التآمر ، وبيتوا النية على اغتيال الخلفاء العادلين ، وهم أحنى عليهم من سادتهم المتوجين ، وهكذا يكون (نكران الجميل) .

اغتيال الخلفاء

كان الهرمزان — قائد الفرس الأسير — الذى أعلن إسلامه كذباً بين يدى عمر بن الخطاب ، رأس المؤامرات والفتن التى أجمع عليها أنصار الكسروية البائدة ودعاتها .

وبدأت هذه المؤامرات بقتل ابن الخطاب بطعنة من أبى لؤلؤة المجوسى الذى عزّ عليه أن يرى مقوض العروش ينعم بهذا السلطان ، فكانت أول طعنة شعوبية فى الإسلام ، وقد ارتد نصلها إلى صدر الهرمزان وأبى لؤلؤة انتقاماً لمصرع الخليفة .

على أن هذه المؤمرات لم تمت بموت الهرمزان فقد خلفه زازوية الفارسى — رئيس الخول أيام فيروز ملك الفرس . وقد نجح مع ابن سبأ فى الشغب على عثمان حتى انتهى الأمر بقتله ، كما نجح فى تدبير الأمر لقتل على وإن ظهر ذلك على يد الخوارج .

فلما آلت الخلافة لبنى أمية ورأوا أنهم قد تنكروا للعرب ، ونكثوا ما عاهدوا الله عليه لم يغتفروا لهم هذه المؤامرات التى التى ظهرت أصابعهم من خلالها ملوثة بالدماء ، والتى تبين منها أن أن الحقد دفين فى نفوس الأعاجم ، فأخذوا البرىء بذنب العاصى أخذ عزيز مقتدر .

الموالى و بنو أمية

كان مقتل عمر بن الخطاب بيد أعجمية سبباً فى تعصب العرب على الموالى إلا أن ذلك لم يظهر بجلاء إلا أيام بنى أمية التى بعثت فيها العصبية من مرقدها : قبلية وجنسية .

كما كان الفتح الإسلامى سبباً فى تعصب الموالى على العرب ولكنهم لم يستطيعوا أن يجهروا بما فى نفوسهم والأمويون لهم بالمرصاد ، فأغمضوا العين على القذى إلى حين .

أما العرب ، وهم الذين طالما سالموا ولم يسلموا ، فقد بدءوا يتوجسون خفية من هؤلاء الأعاجم الموتورين ، ومن ثمّ لم يطمئنوا إليهم ، واحتملوا وحدهم العبء آمنين ، بيدهم مقاليد الأمور : من خلافة وولاية وقيادة ...

كانت الدولة الأموية عربية لحماً ودماً تنظر إلى الأعاجم نظرة

بغض واحتقار ، وترى أنهم دونهم جنسا وخلقا ، ومن ثمّ فقد ترفعوا عن مصاهرتهم وإذا جاز لهم الاقتران بالأعجميات ، فلن يسمحوا بزواج المولى من العربية ، ولا يزال هذا العرف سائداً فى الجزيرة العربية حتى اليوم ، وكتب الأخبار تفيض من ذلك بالشيء الكثير .

حدث أن خطب أحدهم بنتاً من بنى سليم وتزوجها ، فلما ذاع الخبر وعلم به الوالى فرق بينه وبينها وألهب ظهره بالسياط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه . وفى ذلك يقول « ابن بشير » يشيد بالوالى « أبى الوليد ابراهيم بن هشام بن اسماعيل » :

شهدت غداة خصم بنى سليم
وجوها من قضائك غير سود
قضيت بسنة وحكمت عدلاً
ولم ترث الحكومة من بعيد
حمى حدباً لحوم بنات قوم
وهم تحت التراب « أبو الوليد »
وفى المائتين للمولى نكال
وفى سلب الحواجب والخدود

إذا كافأتهم بينات كسرى
فهل يجد الموالى من مزيد
فأىّ الحق أنصف للموالى
من اصهار العبيد إلى العبيد

على أن الظروف كانت — أحياناً — تدفع بعض القبائل إلى تزويج بناتها من الموالى ، فتقدم على ذلك مكرهة ومع هذا لاتسلم من حملات اللائمين . ومن ذلك قول « أبى بجير » لآل عبد القيس :

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتمُ
دعارة زرّاع وآخر تاجر
وأصهب رومى وأسود فاحم
وأبيض جعد من سراة الأحامر
فهلا أبيتم عفة وتكرماً
وهلا وجاتم من مقالة شاعر
بنو الأصفرَ الأملاك أكرم منكمُ
وأولى بقربانا ملوك الأكاسر

ذكروا أن الخاطب لا يخاطب الأعجمية من أبيها أو أخيها

وإنما يخطبها من مولاها ، فإن رضى زُوِّج وإلاَ رُدَ ، فإن زوَّج الأب أو الأخ بغير علم منه فسخ العقد .

ومع أن زواج العربى من الأعجمية كان أهون بكثير من زواج الأعاجم بالعربيات إلا أنه لم يسلم أيضاً من اللوم والعتاب.

يقول الرواة : إن الحسين بن على أعتق جارية له ثم تزوجها فكتب إليه معاوية :

(من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على .

أما بعد : فإنه قد بلغنى أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ؛ ممن نستحسنه للولد ، ونمجد به فى الصهر . فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت) . . . فكتب إليه الحسين :

أما بعد : (فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت مولاتى وتركت أكفائى من قريش ،فليس فوق رسول الله منتهى فى شرف ، ولا غاية فى نسب ، وإنما كانت ملك يمينى ، خرجت من يدى بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى ؛ ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ، ووضع عنا به النقيصة ، فلالوم على امرىء مسلم إلا فى أمر مأثم، وإنما اللوم لوم الجاهلية) .

هذا ، وفى معارك القتال كان العرب يمتطون الجياد ويُرجلون الموالى ،ومن الطرائف التى أثرت فى ذلك ماروى عن نافع بن جبير إذا مرت به جنازة وسأل عنها :

فإن قالوا : قرشى قال : واقوماه ...
وإن قالوا : عربى قال : وابلوتاه ...
وإن قالوا : مولى قال : هذا مال الله ،

يأخذ مايشاء ، ويدع مايشاء .. حدث أن نافعاً هذا قدّم رجلا من الموالى يصلى به ، فلما عوتب فى ذلك قال : أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

على أن السياسة المالية للأمويين معهم كانت أقسى وأمر ، من حيث أنهم لم يسووا بينهم وبين العرب فى العطاء ، وفوق هذا رأينا « الحجاج » لا يرفع الجزية عمن أسلم ، وفى اعتقاده أنهم أسلموا لغرض ، ومن أسلم لغرض ففى قلبه مرض .

أما مناصب الدولة فكادت تكون مقصورة على العرب اللهم إلا وظائف الكتابة فى الدواوين الخارجية فى الأقاليم المفتوحة من حيث إن لغتها كانت بلغة أهل البلاد . فكان ديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية ، وكان طبيعياً والحال هذه أن يكون القوامون عليها من أهل هذه

الأقاليم ، وكان الموالى يشعرون بذلك ويدلونّ به على العرب ، بل على الخلفاء أنفسهم ، وقد أحسّ بذلك عبد الملك بن مروان الأمر الذى جعله يتجه إلى تعريبها حتى لا يكون لهم على العرب فضل أو منّة وقد تمّ فى عهده تعريب ديوانى العراق والشام . أما ديوان مصر فقد عرب فى خلافة الوليد ، وأما ديوان خراسان فقد تمّ تعريبه فى عهد هشام .

ولم يكن هذا التعريب بالأمر الهين على نفوسهم من حيث إنه كان محاولة أموية لنزع هذه الوظائف من أيديهم، وقد فطنوا لذلك وجزعوا ، وعبثاً حاولوا إحباط الأمر بالرشوة ، وكان ذلك من الأمور التى انضجت قلوبهم غيظا على بنى أمية ، من حيث إنه قضى على البقيــة الباقية من نفوذهم كما يقول (سيكس Sykes) .

تلك كانت منزلة الموالى فى هذا العصر ، مما جعل بعض الولاة فى الأقاليم يرقون لحالتهم ولـكن الخلفاء لم يستجيبوا للنداء ، فها هو ذا سليمان بن عبد الملك يقول لمن يطلب لهم ذلك قوله المأثور : (احلب الدّر ، فاذا انقطع فاحلب الدم) .

ولا شك أن عهد الحجاج كان أسوأ عهد على الأعاجم ، ويكفى أنه لم يرفع الجزية عمن أسلم منهم وردّهم إلى قراهم بعد

أن نقش على يد كل منهم اسم البلدة التى وجهه إليها فعادوا وهم يتميزون من الغيظ وكان ذلك من الأسباب التى زادت من تذمرهم وحنقهم على بنى أمية، ومن ثم فقد رأيناهم ينضمون مع كل خارج على الدولة ، والتاريخ يحدثنا أنهم ظاهروا عبد الله بن الزبير ، واشتركوا فى حركات الخوارج التى أقضت مضجع عبد الملك ، كما اشتركوا فى ثورات الشيعة ، وكانوا من أعوان المختار الثقفى ، وعبد الرحمن بن الأشعث ، والحارث ابن سريج فى ثوراتهم العنيفة على الدولة ، ولولا يقظة الخلفاء لنالوا منها فى وقت مبكر . إلا أنهم كانوا دائما كالسوس ينخرون فى عظامها ، ويتحينون الفرصة للإيقاع بها، حتى خرت آخر الأمر، وكان لهم فى ذلك دور كبير ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى ، وأبو سلمة الخلال ، وخالد البرمكى .

ترى . هل كان الأمويون لهم ظالمين . . ؟ وهل كانوا على حق فى تلك التفرقة العنصرية ؟ وأخيرا : هل كانوا مضطرين إلى هذه السياسة ؟

لا شك أن كثيراً من الموالى كانوا يكنون العداوة والبغضاء للعرب ويحنّون إلى دولتهم الدائلة ، وكأنما قد عز عليهم أن يكون أبناء الصحراء البداة أصحاب السلطان فى كل مكان ،

وأن تطوى حضارتهم العريقة طى السجل للكتب ، وأن يصيروا أتباعا وموالى ، وكانوا من قبل أصحاب الملك وأسياد العالم .

عكس الحال لا محالة لكن   ربما أنقذ الغريقَ الماءُ

لهذا لم يستكينوا ، ولم تهدأ لهم ثائرة ، وسعوا جاهدين فى قلب نظام الحكم حتى تعود إليهم « الكسروية » من جديد وهى عندهم الفردوس المفقود .

لقد عرف العرب عنهم ذلك منذ مقتل عمر بن الخطاب بتدبير الهرمزان ، ثم الشغب على الخلفاء الراشدين من بعده ، فلما جاء الأمويون لم يغتفروا لهم هذا الجرم ، وأدركوا أنهم شوكة فى جنب الدولة يجب اجتثاثها . يروى أن معاوية بن أبى سفيان قال للأحنف بن قيس ، وسمرة بن جندب : إنى رأيت هذه الحمراء كثرت ، وأراها قد قطعت على السلف . وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل منهم شطراً ، وأدع شطرا لإقامة السوق وعمارة الطريق ، فماذا ترون ؟ .

ولولا الأحنف ، ومعارضته له لحكّم السيف فى رقابهم

على أن الإنصاف لبنى أمية يقتضينا أن نشير إلى ما كان يلقاه الصالحون من الموالى من الإجلال والاحترام والتقدير ،

ولا أدل على ذلك من منزلة الحسن البصرى التى كانت من أسمى المنازل ، وشخصيته التى كانت موضع التقدير والإجلال حياً وميتا . يروى أنه لما توفى خرجت البصرة على بكرة أبيها لتشييع جنازته حتى تعطلت صلاة العصر فى المسجد الجامع .

إن بنى أمية كانوا يعرفون للعلماء فضلهم ، وللفقهاء قدرهم عربا كانوا أم موالى ، وإذا فبنوا أمية لم يبدءوا الموالى بأذى ؛ ولم يكن من صالحهم أن تبعث القومية الفارسية أو تتحرك العصبية الأعجمية ، ولكن الموالى هم الذين شقوا عصا الطاعة ، وتحركت فى نفوسهم النزعة العنصرية ؛ والعصبية الجنسية فغدروا بالعرب ونكثوا بالعهود . ومن نكث فإنما ينكث على نفسه

على أن هذه السياسة الأموية الضالعة مع العرب ، الضاغطة على الموالى كانت سبباً فى إيجاد تيار عكسى فى نفوس الأعاجم تجلت ثماره المريرة فى كثير من الفتن والمؤامرات التى عجلت بنهاية الدولة .

شعراء الموالي

رأينا فيما سبق كيف كانت منزلة الموالى فى العصر الأموى ، وكيف كان العرب يستطيلون عليهم بجنسهم ، ولغتهم ودمائهم ؛ مما أثار الموالى وأنضج قلوبهم غيظا وحنقا ، ولكن شعراءهم لم يستطيعوا أن يجهروا بما فى نفوسهم والسيوف مشهورة ، والأمويون لهم بالمرصاد ، ولو قدّر لهم أن يصولوا فى هذا الميدان لامتلأت الحواضر والبوادى بشعرهم ، وكذلك بشعر المدافعين عن العرب وربما انجلى الموقف بين العصبتين عن « نقائض » قومية لا تقل فى قيمتها الفنية عن النقائض القبلية التى دارت بين جرير وخصومه فى « مربد البصرة » .

والواقع أن الشعراء العرب — بحكم عروبتهم تلك ، ومنزلتهم من الحكومة القائمة — لم يكونوا متحمسين للنيل من الموالى أو الحط من قدرهم فى سجل الشعر ؛ كأن ذلك حقيقة مقررة لا تحتاج إلى تحريك اللسان أليست الحكومة عربية لحما ودما ؟ أليس بيد العرب — دون سواهم — مقاليد الأمور ؟ .

وعلى العكس من ذلك كان الشعراء الموالى ، أليسوا أبناء

الأكاسرة والقياصرة ؟ أليسوا أعرق من العرب حضارة ، وأنضج منهم عقلا وعلما ؟

ومع ذلك لم يستطيعوا فى هذا الجو العربى المتعصب أن يتنفسوا ، وإن كانت قلوبهم تغلى كالمراجل . . . يستمعون إلى قول « جرير » فيهم أو غيره فلا يتحركون .

يقول أبو العباس المبرد : حينما أحجم بنو العنبر عن ضيافة « جرير » واضطر إلى شراء القرى أنكر عليهم ذلك ، لأنه عربى منهم وليس بأعجمى ، يقول :

يا مالك بن طريف إن بيعكمُ
رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكم بيعا ، فقلت لهمْ
بيعوا « الموالى » واستحيوا من العرب

فأنفت الموالى من هذا القول الذى حط من قدرهم ورأى أن الإساءة إليهم لا تعد عيبا .

على أن بعضهم قد استطاع أن ينفّس عن نفسه ببعض القصائد التى لم تخل غالبا من كنايات ورموز يعلمون مدلولها خشية التصريح ثم هم فى الوقت نفسه قد وزّعوا أنفسهم على الأحزاب الراهنة التى كانت تصطنع الشعراء بغية الاحتماء ،

على أن حزبهم الحقيقى كان « الكسروية » .

ولم يكن خافيا على بعض الولاة فى الأقاليم الفارسية ، فحذروا الخلفاء مغبة هذه النزعة ، ولكن بعد فوات الأوان فمن ذلك قول نصر بن سيار — الوالى بإقليم خراسان — يحذر اليمينية والنزارية مغبة الخلاف الناشب بينهم والعدو رابض من ورائهم يتربص بهم الدوائر . . . استمع إليه يقول :

أبلغ ربيعة فى « مرو » وإخوتهم
فليغضبوا قبل أن لا ينفع الغضب
ولينصبوا للحرب إن القوم قد نصبوا
حربا يحرق فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكمُ
كأنّ أهل الحجى عن رأيكم عزب
وتتركون عدواً قد أظلكمُ
مما تأشب لا دين ولا حسب
قدما يدينون دينا ما سمعت به
من الرسول ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمُ
فإن دينهم أن تقتل العرب

هذه هى الأمنية العظمى «للموالى» كشف عنها ابن سيار ولخّصها فى البيت الأخير .

* * *

لم يحتفظ الأدب العربى إلا بالقليل من هذا الشعر المولوى الذى يفيض بالقومية الفارسية ، ويتغنى بالأمجاد العريقة الأعجمية ، وربما كان السبب فى ذلك أن الرواة أحجموا عن روايته خشية ورهبة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه كان من العسير على شعراء العجم أن يتنفسوا بما فى صدورهم فى هذا الجو العربى المتعصب ، فلم نظفر إلا بقصائد معدودات لبعض الشعراء الذين لم يسلموا من الأذى على الرغم من دالّتهم على الخلفاء ، كإسماعيل بن يسار ، ويزيد بن ضبة ، وموسى شهوات ، وابن ميادة ، وغيرهم ممن تجرى فى عروقهم دماء الفرس ، ولهم إلى دولتهم الدائلة شوق وحنين .

* * *

فأما اسماعيل بن يسار ، فكان من موالى تيم بن مرة ، وكان فارسى الأصل . . . ويبدو أن أسرته بأسرها كانت على شاكلته ؛ فقد كان ابنه « ابراهيم » شاعراً متعصبا على العرب وكذلك كان أخوه « موسى » الملقب (موسى شهوات)

ولكن إسماعيل كان أشدهم عصبية ، وأكثرهم فخراً بالأعاجم ، كما يقول أبو الفرج ، ولقد بلغ من تطرفه فى ذلك أنه كان يشيد بقومه فى حضرة الخليفة هشام بن عبد الملك ؛ يروى أن هشاما استنشده شعراً — وكان جالسا إلى بركة ماء فى قصره بالرصافة — فأنشده قصيدة منها :

إنى ـ وجدّك ـ ما عودى بذى خور
عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم
أصلى كريم ، ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحدّ السيف مسموم
أحمى به مجد أقوام ذوى حسب
من كل قرم بتاج الملك معموم
جحاجحٌ ، سادةٌ بلج ، مرازبة
جرد عتاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا
والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا ملوك الترك والروم

يمشون فى الحلل المـآذى سابغة
مشى الضراغمة الأسد اللهاميم
هناك إن تسألى تُنْبَىْ بأنّ لنــا
جرثومة غلبت عــز الجراثيم

فغضب هشام وقال : أعلىّ تفخر ؟ وإياى تنشد قصيدة تمتدح فيها نفسك وأعلاج قومك ؟ غُطّوه فى الماء ، فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه ونفيه إلى الحجاز .

أرأيت موقفاً جريئاً كهذا الموقف ؟ كيف يشيد بقومه ويفخر على العرب إلى هذا الحد وهو بين يدى خليفة عربى حازم ؟ لاشك أن ذلك كان من أثر العصبية الفارسية المتأججة بين جوانحه .. شأنه فى ذلك شأن الأعاجم الموتورين .

على أنهم فى أغلب الأحيان كانوا يعدلون عن التصريح بهجاء العرب إلى التلميح والتلويح فى كنايات ورموز لاتخفى .. فما « هند ، وجُمَل ، وأمام ، وسلمى » فى شعره وشعر الموالى بعامة إلاّ كنايات عن .. العرب .. ومن هذا اللون قول ابن يسار فى فخره بالفرس وتطاوله على العرب :

رب خال متـــوج لى وعم
ماجد محتدى كـريم النصاب

إنمـــا سمى الفرس بالفـــر
س مضاهاة رفعــة الأنساب

فاتركى الفخر « يا أمام » علينـــا
واتركى الجور وانطقى بالصواب

إذ نربى بناتنا وتدسو
ن بناتكـم فى الــتراب

روى أن « أشعب » حينما سمع ذلك قال :

(صدقت والله يا أبا فايد . أراد القوم بناتهم لغـير ما أردتموهن له ، قالوا : وما ذاك ؟ قال: دفن القوم بناتهم خوف العار ، وربيتموهن لتنكحوهن . فضحك القوم ، وخجل ابن يسار حتى ودّ لو تسوخ به الأرض .

كان ابن يسار — كغيره من شعراء الموالى — يساير الحـكام ويداريهم ومن ثمّ كان يميل مع القوة حيث تميل .

يروى : أن « الغمر بن يزيد » حجبه عنه ساعة حين استأذن فى الدخول عليه .. فلما سمح له دخل يبكى وقال : كيف

أحْجَبُ عنك وأنا على مروانيتي ومروانية أبي ؟ وظلّ يبكي حتى تأثر الغمر واعتذر إليه وأكرم وفادته .

ولما خرج أدرك به أحد الحاضرين ، ممن هم على شاكلته ، وقال له : أخبرني ويلك يا إسماعيل . أيّ مروانية كانت لك ولأبيك ؟ قال . بُغْضنا لهم ، امرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح ، قيل له : قل لا إله إلا الله. فقال : لعن الله مروان ، تقربا بذلك إلى الله تعالى ، وإبدالا له من التوحيد ، وإقامةً له مقامه .

ويبدو أن يزيد بن ضبة لم يكن أقل عصبية على العرب من إسماعيل مع أنه ولد مجهول الأب فنسب إلى أمه « ضبة » . جمعت الروابط الوثيقة بينه وبين « الوليد بن يزيد » سكّير بني أميّة ، وليست هذه الروابط إلا الفسق والخلاعة والمجون فضلا عن الزندقة الفارسية ، فالرواة يشيرون إلى أنه كان على مذهب « ماني » .

وإذ كان متصلا « بالوليد » على هذا النحو ، وإذ كانت العداوة مستحكمة بين الوليد هذا وبين هشام بن عبد الملك ، فقد نقم منه هشام ، وأعرض عنه حينما ذهب إليه مهنئا بالخلافة ،

وأمر بإقصائه عن البلاط وقال له متهكما : عليك بالوليد فامدحه ، فخرج من عنده مغيظا محنقا تثور بنفسه نزوات العصبية الفارسية التي تتجلى في قوله :

أرى سلمى تصدّ وما صددنا ... وغير صدودها كنّا أردنا
لقد بخلت بنائلها علينا ... ولو جادت بنائلها حمدنا
وقد ضنت بما وعدت وأمست ... تغيّر عهدها عما عهدنا

* * *

ألم تر أننا لما ولينا ... أموراً خرقت،فوهت ، سددنا
رتأنا الفتق حين وهى عليهم ... وكم من مثله صدع رفأنا
إذا هاب الكريهة من يليها ... وأعظمها الهيوب لها عمدنا
وجبّار تركناه كليلا ... وقائد فتنة طاغ أزلنا
فلا تنسوا مواطننا فإنا ... إذا ما عاد أهل الجرم عدنا

بعد هذا الفخر الممزوج بالعتاب ، التفت إلى هشام وكشف عن عداوته وقوميته الفارسية ، واختتم قوله بما يشبه الوعيد والتهديد . . استمع إليه يقول :

ألا من مبلغ عني هشاما ... فما منا البلاء وما بعدنا
وما كنا الى الخلفاء نقضي ... وما كنا نؤخر إن شهدنا
ألم يك بالبلاء لنا جزاء ... فنجزى بالمحاسن .أم حسدنا ؟

وقد كان الملوك يرون حقا ... لوافدنا ، فنكرم إن وفدنا
ولينا النـاس أزمانا طوالا ... وسسناهم ، ودسناهم ، وقدنا
ألم تر من ولدنا كيف أشبى ... وأشبينا وما بهمو قعـدنا
نـكون لمن ولدناه سماء ... إذا شيمت مخايلنا رعـدنا
وكان (أبوك) قدى أسدى إلينا ... جسيمة أمره ، وبه سعدنا
كذلك أول الخلفـاء كانوا ... بنا جدّوا كما بهمُ جددنا
همُ آباؤنا ، وهمُ بنونا ... لنـا جبلوا ، كما لهمُ جبلنا
ونـكوى بالعداوة مَن بغانا ... ونسعد بالمـودة من ودنا
نرى حقـا لسائلنا علينـا ... فنحبوه ونجزل إن وعدنا
ونضمن جارنا ونراه منـا ... ونرفده ، فنجزل إن رفدنا
وما نعتد دون المجـد مالا ... إذا يغـلى بمكرمة أفـدنا
وأتلد مجـدنا أنّـا كرام ... بحـد المشرفية عنـه ذدنا

أليست هذه نفثة مصدور ، وغضبة موتور ، وما كان له أن يجهر بها لولا أنه فى كنف الوليد الذى أرسله إلى « الطائف » ليعيش فى رحابها بمنجاة من غضب الخليفة وظل بهـا مقيما حتى آلت الخـلافة إلى الوليد . فأقبل عليه مهنئاً ملويا على ما لاقاه من الأذى أيام هشام الذى كان يكنى عنه دائما باسم محبوبته « سلمى » بنت سعيد بن خالد ، وفى ذلك يقول :

سليمى تلك فى العير ... قفى إن شئت أو سيرى
وقد لاقيت من سلمى ... تباريح التذاكير

فأكرمه الوليد ، وقربه إليه . وعاش فى البلاط الأموى يمهد لأبناء جنسه عند الخليفة .

* * *

وكما نسب يزيد إلى أمه ضبة فقد نسب شاعرنا الثالث إلى أمه — ميادة — التى أجمع الرواة على أنها أم ولد .

ومن هنا نشك فى نسبته العربية ، ونخالف القائلين بأنه ابن أبرد بن مرة رهط الحارث بن ظالم ، ونرى رأى القائلين بأعجميته ، وأنه ابن نهبل عبد بنى مرة ؛ إذ لو كان عربى الأب لانتسب إلى أبيه فضلا عن أن خصومه من الشعراء قد عيروه بالعبودية ، وانحداره من صلب نهبل كما سنرى .

ويبدو أنه كان شديد التعصب للفرس ؛ فقد احتفظ لنا الأدب بإحدى النقائض التى دارت بينه وبين الشاعر العربى « الحكم الخضرى » ففيها قال ابن ميادة مفتخراً بقومه الفرس :

أنا ابن سلمى وجدى ظالم
وأمى حصان أخلصتها الأعاجم

أليس غلام بين كسرى وظالم
بأكرم من نيطت عليه التمائم
لو ان جميع الناس كانوا بتلعة
وجئت بجدى ظالم وابن ظالم
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا
سجودا على أقدامنا والجماجم

هب « الحكم » لمناقضته بقوله :

ومالك فيهمُ من أب ذى دسيعة
ولا ولدتك المحصنات الكرائم
وما أنت إلا عبدهم إذ ترومُ
من الدهر يوما تستربك المقاسم
رمى « نهبلٌ » فى فرج أمك رمية
بحوقاء تسقيها العروق الثواجم

* * *

ثم نشب بينهما كثير من الملاحم اللسانية التى وقف كل منهما يشيد فيها بأصوله وأمجاد قومه . . فمن ذلك قول « الحكم » فى الإشادة بمجد العرب :

إذا يبست عيدان قوم وجـدتنا
وعيداننا تغشى على الورق الخضر
إذا النـاس ناءوا بالقروم أتيتهم
بقرم يساوى رأسه غرة البدر
لنـا الغور والأمجاد والخيل والقنا
عليـكم ، وأيام المكارم والفخر

* * *

(وبعد) فهذا طرف من الشعر الذى يمثل الخصومة بين العرب والعجم ، تردد على ألسنة بعض الشعراء ، وإن كان ماتخفى صدورهم أكبر .

والذى يعنينا فى هذا المقام أن نلفت النظر إلى ما كان من اتصال هذه العصبية الجنسية بفن النقائض كما رأينا فيما دار بين ابن ميادة والحكم الخضرى . والواقع أن « جريراً » كان له فى هذه الحلبة أيضاً دور كبير فحينما هجا « الأخطل » بقصيدته اللامية التى فيها يقول :

قبح الإله وجـوه تغلب كلما
شبح الحجيج وكبروا إهلالا

عبدوا الصليب ، وكذبوا بمحمد
وبجبرئيل ، وكـذبوا ميـكالا
لو أن تغلب جمعت أحسابها
يوم التفاضل لم تزن مثقالا
لا تطلبن خئولة فى تغلب
« فالزنج » أكرم منهمُ أخوالا

كان ذلك أليما على العبيد ، فنهض شاعرهم « سنيح بن رباح » مولى بنى ناجية للرد عليه بنقيضته التى اعتز فيها بقومه ، ونال فيها من جرير بتفضيل الفرزدق عليه . وفيها يقول :

إن الفرزدق صخرة ملمومة
طالت ، فليس تنالهـا ، الأوعالا
قد قستُ شعرك ، يا جرير ، وشعره
فقصرت عنه ، يا جرير ، وطـالا
ووزنتُ فخرك ، يا جرير ، وفخره
فخففت عنه حين قلت وقالا
« الزنج » لو لاقيتهم فى صفهم
لاقيت ثَمَّ جحاجحا أبطـالا
كان « ابن ندبة » فيكم من نجلاا
« وخفافُ » المتحمل الأثقـالا

فسل ابن عمرو حين رام رماحهم
أرأى رماح الزنج ثمّ طوالا

وإذ تطرق الحديث إلى الزنوج، وهم موالى النوبة، كنصيب وسنيح فى الإسلام وعبد باليل فى الجاهلية، فيجدر بنا — حينما نشير إلى موقفهم من العرب — أن نقرر أنهم كانوا أقل الشعوب عصبية على العرب، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى قلتهم، وضعفهم وماضيهم الذى لم يبلغ من الحضارة ما بلغه الفرس والروم. فإذا وقف الفرزدق بين يدى سليمان بن عبد الملك يعيّر «نصيب بن رباح» بالعبودية والسواد بقوله:

وخير الشعر أشرفه رجالا
وشر الشعر ما قال العبيد

لم ينس نصيب أنه دخيل، وفى بيئة عربية تسودها العنجهية، فلم يزد — فى الرد عليه — على الافتخار بشاعريته فقال:

ليس السواد بناقصى ما دام لى
هــذا اللسانُ إلى فؤاد ثابت

من كان ترفعه منابتُ أصله
فبيوت أشعارى جعلن منابتى

إنى ليحسدنى الرفيع بناؤه
من فضل ذاك وليس بى من شامتِ

وفى تلك الأبيات من التسامى والتطاول مالا يخفى ، من حيث أنه لم يتمسح بالأصول والجدود، وإنما قد نخر بقلبه ولسانه وهل المرء إلا بهذين الأصغرين ؟ كما فخر بشاعريته وهى عنده أسمى من الأصول التى يزدهى بها العرب .

جناية الموالى على الشعر

لم يكتف الموالى المتعصبون على العرب بقرض الشعر فى هجائهم ، والتطاول عليهم ، وإنما لجأوا إلى أساليب أخرى أشد وأنكى من حيث إنها كانت ترمى — فوق ذلك — إلى إفساد الأدب والعبث بهذا التراث الشعرى الخالد الذى يتمجد به العرب على مر الأيام ... فمن ذلك !

١ — دس المثالب على العرب ، وإنطاقهم بما لم ينطقوا ، والرواة يشيرون إلى هذه الجارية العامرية التى نزل بحيها ضيف من تنوخ ، فلما استنسبته انتسب إلى تميم ، فذكرت له أبياتاً فى ذم تميم مما اضطره أن ينفى عن نفسه هذه النسبة وينتسب إلى قبيلة أخرى ، ولكنها كانت كلما انتسب إلى قبيلة تذكر له عنها شعراً مقذعاً . وما زال هذا شأنهما حتى تعرضا لكثير من قبائل العرب ، وأخيراً انتسب إلى بنى هاشم ، ومع ذلك لم يسلم

من لسانها المرير وأهاجيها المفتراة ، حيث قالت . أو تعرف الذى يقول :

بنى هاشم عودوا إلى نخلاتكم
فقد صار هذا التمر صاعا بدرهم
فإن قلتمُ : رهط النبي محمد .
فإن النصارى رهط عيسى بن مريم

والحكاية كلها موضوعة لأغراض كيدية لا تخفى .

٢ — ومن ذلك أيضا ما أنطقوا به القدامى من شعراء العرب من شعر يرفع من شأن الفرس ، ويحط من قدر العرب ، كأنهم يريدون أن يشهدوا التاريخ كذبا على أن عرب الجاهلية كانوا يقرون لهم بالفضل والتقدم . يقال إن مدائح الأعشى ، وعدى بن زيد ، ولقيط بن يعمر فى ملوك الفرس من هذا اللون ، كذلك لامية أبى الصلت أبى أمية بن أبى الصلت فى مدح سيف بن ذى يزن وحلفائه من الفرس وفيها يقول :

لله درّهم من عصبة خرجوا
ما إن ترى لهم فى الناس أمثالا
بيضا مرازبة غرا جحاجحة
أسداً تربّبُ فى الغيضات أشبالا

من مثل كسرى وسابور الجنود معا
أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا
فى رأس غمدان دارا منك محلالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا

ولعل مما يقوى هذا الظن أن البيت الأخير نصٌّ صريح فى هجاء العرب ، فإذا كان للشاعر مأرب فى مدح الفرس فما غايته من هجاء بنى قومه ؟

٣ — وضع القصائد ونسبتها لغيرهم من الشعراء القدامى حتى ينالوا شرف الرواية ، فقد أحدث ذلك بعض الاضطراب عند التأريخ للأدب ، والمحققون الآن على أن لامية الشنفرى . من وضع خلف الأحمر الذى وضع لامية أخرى على « تأبط شراً » .

وقد اعترف هو للأصمعى على أنه وضع على النابغة الميمية التى فيها يقول :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وكذلك كان « حماد الرواية » كما سنرى .

ومن أساليب الوضع الخطيرة تلك الشواهد النحوية أو اللغوية التى وضعوها على القدامى تعزيزا لاتجاههم النحوى إن كان العرب على خلافهم .

يقول اللاحقى : إن سيبون سألنى عن إعمال العرب (فعلا) الصفة فوضعت له هذا البيت :

حَذِر أمورا لاتضير وآمن
ما ليس ينجيه من الأقدار

أما فارس هذا الميدان فهو « حماد بن سابور » الملقب بالراوية لأنه بذّ جميع الرواة : عربا كانوا أم موالى ، وكان — لبصره بالشعر — أقدر من غيره على الوضع والانتحال لأغراض شخصية أو شعوبية .

يقول الضبّى : سلط على الشعر من الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل . وكيف ذاك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك . فإن أهل العلم يردون من يخطىء إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبّه به مذهب رجل ويدخله فى شعره ، ويُحمَل ذلك عنه فى الآفاق ؛

فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد.
وأين ذاك؟ .

وإذا علمنا أنه كان من الموالى الديالمة ، وأنه كان على زندقة الفرس أمكننا أن نعرف . لماذا حاول إفساد الشعر بهذا الأسلوب الذى هو أقوى أساليب الكيد للعرب ، من حيث إنهم كانوا يتغنون بهذا التراث الخالد الذى حفظ بين طياته تاريخهم المجيد ، وكأنه بذلك يريد — بإفساده الأدب — أن يشكك المحدثين فى هذا الأثر الباقى، وبالتالى يريد أن يقضى على أسباب الفخر العربى .

لا عجب أن كان ذلك من أقوى الأساليب العدائية التى سلكها الفرس فى صراعهم الأدبى الأليم مع العرب .

احتـــدام الصراع

فى العصر العباسى

اتسعت رقعة الدولة بامتداد الفتوح الإسلامية شرقا وغرباً ، تلك الفتوح التى قضت نهائياً على الدولة الفارسية ، واقتطعت الأقاليم المجاورة من جسم الدولة البيزنطية . . . وعبثاً حاولت الفلول الباقية من آل ساسان — أيام بنى أمية — أن تثأر لنفسها بالعرب الواترين، لتسترجع مجدها الغابر وتعيد الكسروية من جديد . ولكن هيهات فإن الدولة إذ ذاك كانت عربية لحماً ودماً . فلما سنحت لهم الفرصة ، فى أوائل القرن الهجرى الثانى ، بظهور الدعوة الجديدة لآل البيت انضموا إلى دعوة العباسيين الذين لم يكشفوا عن نواياهم الحقيقية فى الاستئثار بالسلطان ، وكانت معركة الزاب سنة ١٣٢ هـ رداً عملياً لموقعة « القادسية » وانتصاراً مؤزراً للفرس على العرب .

قامت الدولة العباسية إذاً على أكتاف الفرس حافظة لهم هذا الصنيع ، فأفسحت لهم المجال ، وأطلقت أيديهم فى تصريف الشئون ، ولكنهم ظنوا خطأ أن الدولة دولتهم فطغوا وبغوا ، واستطالوا على العرب كما استطال الزنادقة منهم على الدين مما حدا بالسفاح أن يبطش بأبى سلمة ، وبالمنصور أن يفتك بأبى مسلم ،

وبالمهدى أن ينكّل بالزنادقة ، وبالرشيد أن يوقع بالبرامكة ...

على أن هؤلاء الخلفاء لم يقدموا على ذلك إلا بعد أن ضاق صدرهم ، ونفد صبرهم ، وخشوا مغبة هذا النفوذ المتزايد الذى تضاءل بجواره نفوذهم . ولا أدل على ذلك مما رواه السيوطى — فى تاريخ الخلفاء — فقد ذكر أن أبا مسلم وجه «محمد بن الأشعث» أميراً على فارس فى الوقت الذى عقد الخليفة لعمه عيسى بن على بالولاية عليها . فلما قدم عيسى على ابن الأشعث أبى أن يسلم الأمر إليه ، فقال له عيسى : يا ابن الأشعث ألست فى طاعة الإمام أبى العباس ؟ قال : بلى . ولكن أبا مسلم أمرنى ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس .

قال عيسى : فإنما أبو مسلم عبد الإمام ، وإن الإمام لا يرضى أن يردّ أمره . قال محمد : دع عنك هذا . لست أسلم العمل إليك إلا بكتاب أبى مسلم . فانصرف عيسى إلى العباس ، وأخبره بذلك فكظم غيظه ، وأمر عمه بالمقام عنده .

نعم . كظم أبو العباس غيظه ولكن إلى حين ، فما كان له أن يبادر إلى السيف وسيوف الخراسيين — أتباع أبى مسلم — لم تستقر بعد فى الأغماد ، ولولا أن المنية عاجلته لفتك به كما فتك بأبى سلمة ، وكذلك فعل الرشيد بالبرامكة حين رأى نفوذهم طاغيا

حتى كان كما يقول ابن خلدون : « يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه » ، وأصبحوا أكاسرة فى قلب الدولة وإن لم يكونوا متوجين . . . فلما عصف بهم الرشيد كان ذلك — فى الواقع — ضربة قاصمة لظهور الفرس قاطبة أزالت نفوذهم من البلاط العباسى . ومن ذلك التاريخ بدأ العرب يتنفسون الصعداء .

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد أثارت تلك النكبة حفيظة الفرس ، وأهابت بهم أن يأخذوا بثأرهم من العرب فضلا عن الخليفة نفسه . . ونرى أنهم مهدوا لموت الرشيد ، كما مهدوا للصراع الدامى بين الأمين والمأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان طبيعيا أن يقفوا بجانب المأمون الذى يمت لهم بصلة القربى من حيث إنه ابن « مراجل الفارسية » ومن ثم كان انتصار المأمون — كما يقولون — انتصاراً للفرس على العرب .

تزايد النفوذ الفارسى إذا — مرة أخرى — فى البلاط العباسى ، ولم يستطع الخلفاء — من بعد المأمون — أن يفلوا من شوكته، فاستعانوا « بالأتراك » الذين جاءوا وبالاً على العرب والفرس معا — ودخلت البلاد فى صراع جديد بين العنصرين الدخيلين ، ولا حول للعرب مع هؤلاء وهؤلاء .

وظل الحال كذلك حتى سقطت بغداد فى أيدى التتار سنة ٦٥٦هـ.

أساليب الصراع بين الطرفين

أسهم الفرس فى تقويض العرش الأموى وهم يهدفون من وراء ذلك إلى زوال النفوذ العربى تمهيداً لإعادة «الكسروية» — فردوسهم المفقود — فإن لم يظفروا بذلك فلا أقلّ من أن يظفروا بالقضاء على بنى أمية الذين كمّوا أنفاسهم ، وحطموا كبرياءهم . . . وقد وجدوا الفرصة فى الدعوة العباسية التى تظاهرت بالدعوة لآل البيت ، وللشيعة هوى فى نفوسهم ، وبخاصة سلالة الحسين بن على من ابنة ملكهم يزدجرد الثالث ،تلك السلالة التى كانوا يعتبرونها أشرف السلالات . ألم تجمع بين أطهر دم فارسى وأشرف دم عربى ؟ فلما آلت الخلافة لبنى العباس — على خلاف ما كانوا يظنون — لم تصادف هوى فى قلوبهم ، ولم يستبشروا بالعهد الجديد ، وإن كانوا على أية حال خيراً من بنى أمية .

ساير الفرس بنى العباس على أمل وعلى وجل ، فلما رأوا ما كان من فتك السفاح بأبى سلمة ، وإيقاع المنصور بأبى مسلم وعلى أكتافهما قامت الدولة ، خابت آمالهم فى العباسيين، وبدءوا فى الكيد للدولة ، والتطاول على العرب ، ومن ثم قام الصراع

عنيفا بين الطرفين : صراع فى الدين ... ، وصراع فى اللغة ... ، وصراع فى السياسة.. ،وصراع فى العلوم..،وصراع فى التقاليد.. والعادات ... وقد استطاعوا أن يحرزوا النصر فى جميع الميادين إلا فى ميدانى الدين واللغة ؛ فعلى الرغم من أساليب الزنادقة المارقين فى الكيد للإسلام لم يستطيعوا أن ينالوا منه (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) ، وكذلك اللغة العربية لغة القرآن الكريم الذى حفظها من الانقراض على مرّ الأجيال ، أما أساليبهم السياسية التى ساسوا بها البلاد ؛ من نظم وإدارة فقد سادت ، وانتظمت الدواوين فى سائر الأقاليم ، وفى ذلك يقول (بالمر Palmer) . (إنهم ساسوا البلاد سياسة عربيـة فى ظاهرها فارسية فى باطنها ، ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى كان طبيعيا أن تسيطر الآراء الفارسية ، ولهذا نجد وزيراً من أصل فارسى على رأس الحكومة ، كما نجد أيضا أن الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به امبراطورية آل ساسان) .

لقد رأى الخلفاء أن لهم يداً بيضاء فى قيام دولتهم ، فأسندوا إليهم مهام الأمور لهذا الاعتبار من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنهم أصحاب حضارة قديمة ، ولهم خبرة بهذه الأساليب الجديدة

على العرب ، فلو تصفحت وزراء العصر العباسى الأول لوجدتهم من الموالى منذ أن تسلم الزمام أول وزير للإسلام « أبو سلمة الخلال »؛ يقول السيوطى : (إن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده حتى زالت رياسة العرب وقيادتها) وزاد المسعودى على ذلك فذكر أن العرب قد سقطت وبادت ، وزال بأسها .

ولعل من باب الإنصاف للخلفاء بنى العباس أن نشير إلى أنهم لم يغفلوا شأن العرب الذين أنسوا فيهم جانب الرشد واستعانوا بهم فى بعض المواقف . وما كان لهم أن يغفلوا شأن العرب أبناء جنستهم لو أنهم مدوا إليهم يدا ، وأبدوا نحوهم حسن الاستعداد ، وكانت لهم لباقة الفرس ومهارتهم ، ولكنهم ظنوا أن الدولة دولتهم وأن الخليفة عربى مثلهم فهم أعظم من أن يتزاحموا على أبوابه تزاحم العجم ، وليسوا دخلاء على الدولة حتى يجدِّوا فى إظهار الطاعة والولاء ، أما الفرس فقد عرفوا — منذ الجولة الأولى — كيف يسيرون فى ركب الخلفاء ، وكيف يأسرون قلوبهم ويصيرون موضع ثقتهم ؛ فهذا « خالد البرمكى » — رأس البرامكة فى الإسلام وأحد دعاة العباسيين بل أحد النقباء الإثنى عشر — يذهب إلى السفاح

مبايعا ، وحينما قال له من الرجل ؟ قال : مولاك خالد بن برمك وتمثل بقول الكميت :

ومالى إلا آل أحمد شيعة

ومالى إلا مذهب الحق مذهب

فاعجب الخليفة بفصاحته ولباقته ، وألحقه بخدمته ، فلما رسخت أقدامه أخذ يمكن لأبنائه فى البلاط ، ولبنى جنسه فى مرافق الدولة حتى أصبح البرامكة فى عهد الرشيد كعبة القصاد والوراد : عربا كانوا أم موالى .

وبمثل هذه السياسة استطاعوا أن يقبضوا على زمام الأمور كما استطاعوا من ناحية أخرى ، ومن طرف خفى ، أن ينفثوا سمومهم فى الدولة ، وأن يحتالوا لمآربهم الحقيقية فى إعادة الكسروية ، وكان لهم فى ذلك أساليب مختلفة لم يفطن لها الخلفاء بادىء ذى بدء فلما يتضح أمرها يكون للعرب معهم — فضلا عن الخلفاء — دور حازم خطير ، فما هى هذه الأساليب . . ؟ ؟

١ — الانتقام من بنى أمية

كان طبيعياً أن يبدأ الفرس بالانتقام من الأمويين الذين

ناصبوهم العداء ، وفرقوا فى المعاملة بينهم وبين العرب

وقد استطاعوا أن يأخذوا بثأرهم فى معركة الزاب الفاصلة بما قتّلوا وشرّدوا فلما تمّ الأمر لبنى العباس لم يفتهم أن يتعقبوا البقية الباقية بتحريض الخلفاء عليهم .

يقول الرواة إن « شبل بن عبد الله » مولى بنى هاشم دخل على عبد الله بن على . عم السفاح . وقد أجلس ثمانين رجلا من بنى أمية على سمط الطعام فمثل بين يديه وقال :

أصبح الملك ثابت الأساس
بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها
بعد ميل من الزّمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثارا
واقطعن كل رقلة وأواسى
ذلها أظهر التودد منها
وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سوائى
قربهم من نمارق وكراسى

أنزلوهـا بحيث أنزلها الله
بـدار الهـوان والإتعـاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً
وقتـلا بجـانب المهـراس
والقتيـل الذى بحران أضحى
ثاويا بين غربة وتناسى
نعم شبل الأهراس مولاك شبل
لو نجـا من حبائل الإفلاس

فأمر بهم عبد الله ، فشدخوا بالعمد ، وبسطت عليهم البسط وجلس عليها ، ودعا بالطعام ، وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً . . كما ذكر أبو العباس فى كامله أن الشاعر المولى «سُدَيف» مولى أبى العباس السفاح دخل عليه — فى خلافته — وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أدناه ، وأعطاه يده فقبلها ، فلما رأى ذلك «سُدَيفُ» أقبل على أبى العباس وقال :

لا يغرّنك ما ترى من رجال
إن تحت الضـلوع داء دويا
فضع السيف ، وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرهـا أمويا

ومن تحريض سديف أيضا قوله :

كيف بالعفو عنهم وقديما
قتلوا وهتكوا الحرمات
أين زيد . وأين يحيي بن زيد
يالها من مصيبة وترات
والإمام الذى أصيب بحرّان
إمام الهدى وراث الثقات
قتلوا أحمدا . فلا غفر الذنب
لمروان غافر السيئات

* * *

ولما دارت الدائره على « يزيد بن هبيرة » قائد مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية ، وطلب الأمان من السفاح عرض الأمر على أبى مسلم الخراسانى ، فما كان جوابه إلا أن قال : (إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة) فأمر السفاح بقتله بعد أن أمّنه المنصور ، فقتل ومداد الأمان لم يجف ، وقتل معه عدد كبير من الأمويين ، وفى هذا الغدر يقول الشاعر منقذ بن عبد الرحمن الهلالى :

منع العزاء حرارة الصدر والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغرَّ أن عرضت دون الوفاء ـ حبائل الغدر
مالت حبائل أمرهم بفتى مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيّهم فقلت له هلا أتيت بضيحة الحشر
من للمنابر بعد مهلكهم أو من يسد مكارم الفخر
فإذا ذكرتهم شكا ألماً قلبي ، لفقد فوارس زهر
قتلى بدجلة ما يغرقهم إلا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم خير الحماة ليالى الذعر

* * *

فى هذا الجو المريب توجس الأمويون خيفة على أنفسهم ، وفقدوا الأمل فى المقام فى ظل العباسيين بعد أن رأوا ما حلّ بإخوانهم ، ففروا بأنفسهم إلى المغرب ، وكانت لهم دولة مترامية الأطراف فى الأندلس أسسها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بعبد الرحمن الداخل دامت أكثر من ثلاثة قرون من (١٣٨ — ٤٢٢ هـ = ٧٥٦ — ١٠٣١م)

٢ — مناصرة العلويين

استأثر العباسيون بالخلافة ـ بعد هزيمة الأمويين ـ بعد أن

غرروا بالعلويين وأنصارهم حينما تظاهروا بالدعوة لآل البيت . .

وكانت حجتهم فى ذلك أنهم — فوق وراثتهم للعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم — صاروا أصحاب الحق فى الخلافة بعد أن تنازل محمد بن الحنفية لهم عنها وهو وحده صاحب الحق الأصيل، ولكن العلويين أنكروا هذا التنازل وناصبوا الدولة العداء ، وكان بين الطرفين معارك حامية لم يطفئها العباسيون إلا بوابل من الدماء .

وضع الفرس أيديهم فى أيدى العلويين ، وجدوا فى الخلاص من العباسيين كما جدوا — من قبل — فى الخلاص من بنى أمية، وقد تجلى ذلك فى كثير من المواقف الحساسة .

فهذا يعقوب بن داود — وهو أحد الموالى الذين وزروا للمهدى — قد أطلق من السجن أحد العلويين . ولما علم بذلك المهدى أمر بسجنه بدلا منه .

وهذا جعفر بن يحيي البرمكى الذى أطلق سراح العلوى الثائر (يحيي بن عبد الله) وقال له : اذهب حيث شئت من بلاد الله ، ووجه معه من أبلغه برّ النجاة ، الأمر الذى أحنق عليه الرشيد ، وفى ذلك يقول الطبرى : (ولكن الرشيد تظاهر

بأنه غير عابىء بالأمر . وجاء جعفر فقال له : ما فعل يحيي بن عبد الله ؟

قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال .

فقال الرشيد : بحياتى ؟

فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهنا ، وأصحهم فكرا ، وهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره ، وقال له : لا . وحياتك يا سيدى . ولكنى أطلقته ، وعلمت أنه لاخيانة به ، ولا مكروه عنده .

فقال الرشيد : نعم ما فعلت . ما عدوت ما كان فى نفسى ...

فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك .

فكان من أمره ما كان) . وما من شك فى أن هذا كان من الأسباب التى غيرت قلب الرشيد على البرامكة ، وربما كان من الأسباب التى أدت إلى الإيقاع بهم .

ثم هذا أيضاً الفضل بن سهل — وزير المأمون — يأخذ عليه عهداً أن يبايع بولاية العهد من بعده « عليا الرضا » . وأن يطرح السواد شعار بنى العباس ويستبدل به الخضرة شعار العلويين ، فى مقابل نصرته على أخيه الأمين . وقد فطن لذلك

نعيم بن حازم فقال : (إنما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس إلى ولد على ثم تحتال عليه ، ثم تصيّر الملك كسرويا) .

على أن المأمون — لحكمة سياسية — سايرهم أول الأمر ، وعقد البيعة وطرح السواد . فلما رسخت أقدامه ، واشتد ساعده أطاح برأسه ، وأحيا شعار بنى العباس .

* * *

والحق أن العداوة للعباسيين لم تكن هى السبب الوحيد الذى ألف بين الفرس والشيعة . فقبل قيام الدولة العباسية كان هوى الفرس مع الشيعة ، ولم يتخل عنهم هذا الهوى حتى فى أدق المواقف ، فهذا أبو سلمة الخلال — أكبر نصير للدعوة العباسية فى أخريات الدولة الأموية — نراه فى اللحظة الحاسمة التى تحتضر فيها الدولة يراسل جعفرا الصادق لينهض بالأمر ويتسلم الزمام ولكن جعفراً خشى العواقب وأحرق كتاب أبى سلمة قبل قراءته وتمثل بقول الكميت :

أيا موقداً نارا لغيرك ضوءها
ويا حاطبا فى حبل غيرك تحطب

ليس بعجيب بعد هذا أن يأخذه السفاح بسيف الهدى على عمل الضلالة .

٣ — الكيد للإسلام

من الفرس المتعصبين من قصروا عداوتهم على العرب من حيث إنهم الأمة الواترة التى أزالت دولتهم وسلبتهم سلطانهم ، وعندهم أن الدين الإسلامى دين الجميع لا فرق بين عرب وعجم.

ومنهم من تطرفوا فى عصبيتهم تطرفا أعمى جرهم إلى كره العرب وما جاء عن طريق العرب ولو كان دينا سماويا . . . وهؤلاء هم الزنادقة المارقون بقايا رواسب المجوسية فى المجتمع الجديد ، وقد تظاهروا بالإسلام ولا يزالون يحنون إلى دياناتهم القديمة من الزرادشتية أو المانوية أو المزدكية ، تلك العقائد القائلة بإلهين اثنين لهذا الكون : إله الخير « أهورا مزدا » ، وإله الشر « اهريمان » وقد حاولوا — على فترات من الزمن — تأليه الحكام الذين هم ظل الله فى أرضه — كما يزعمون — تمهيداً لاقتلاع جذور التوحيد من القلوب ، وقد بدءوا ينفثون سمومهم منذ خلافة الإمام على ، حينما غالوا فى حبه وقالوا أولا بوصايته ثم انتهوا إلى تأليهه . وقد فطن لذلك الإمام وهم بقتل زعيمهم « عبد الله بن سبأ » كما فطن المسلمون إلى أن هؤلاء الزنادقة قد اتخذوا من التشيع ستاراً لمبادئهم

المدّامة وضيقوا عليهم الخناق طوال العهد الأموى .

فلما جاءت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ظن هؤلاء الزنادقة أن الدولة دولتهم ؛ فمنهم الوزراء والحجاب والكتاب ، وبيدهم مقاليد الأمور ... أليست الفرصة سانحة لنشر مبادئهم القديمة التى تطفىء نور الإسلام .. ؟

إن العرب لم يتغلبوا عليهم إلا بقوة هذا الدين الجديد ، وتعاليمه التى جعلت من الضعف قوة ، ومن التفرق وحدة . فلو قدر لهم القضاء عليه استطاعوا بالتالى القضاء على العرب وذلك هو أملهم الذى يدنيهم من « الكسروية » ويعيد إليهم عقائدهم المجوسية التى مازالوا يحنون إليها .

ولما فتك المنصور بأبى مسلم بعد أن فتك السفاح بأبى سلمة خاب أملهم فى العباسيين . وأيقنوا أن العهد الجديد لن يكون عليهم خيراً من سابقه ، وأن الخلفاء نحوهم هم الخلفاء لافرق بين أموى وعباسى ؛ تجرى فى عروقهم دماء العروبة ، وتمتزج بقلوبهم تعاليم الإسلام ومن ثَمَّ كان عليهم ، وقد عزموا على النضال ، أن يحتالوا لمآربهم ، وأن يتظاهروا بالولاء للخلفاء ماوسعهم التظاهر ؛ لينفثوا سمومهم القاتلة وهم آمنون .. فما هى هذه الحيل . . . ؟ وهل نجحوا فى التمويه على الخلفاء . . . ؟ ؟

بدأت الجولة الأولى فى عهد أبى جعفر عقب مقتل أبى مسلم ، وكانت خطتهم ترمى إلى « تأليه الخلفاء » .

يقول الطبرى : (إن قوما عبدوا أبا جعفر ، وصعدوا الخضراء ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح . فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنت أنت .. يريدون أنت الله .

ولكن المنصور فطن لنواياهم ، كما فطن الأمام على لنوايا ابن سبأ . وإذ تبين له أنهم أتباع أبى مسلم فقد عرف أنهم أعداء الدولة فقتل من قتل ، وحبس من حبس .

هؤلاء هم « الراوندية » أتباع أبى هديدة الراوندى ، وكانوا يزعمون للناس أن الإمامة قد استقرت فى بنى العباس ؛ وذلك بعد أن انتقلت إليهم الروح التى كانت فى على بن أبى طالب تلك التى كانت أصلا فى « عيسى بن مريم » .

لقد قضى المنصور على الفتنة ، ولكنه لم يقض على جذورها فنبتت من جديد بلون جديد ، فقد التفت الفلول الباقية من الراوندية حول « المقنع الخراسانى » — صاحب أبى مسلم — الذى ادعى لنفسه الألوهية بعد أبى مسلم عن طريق التناسخ ، ونشر بين الناس تعاليم « مزدك » تلك التعاليم التى تدعو

للإباحية المطلقة فى المـال والنساء فضلا عن إسقاط الفروض والتـكاليف عن البشر .

كان ذلك فى خلافة المهدى الذى وجه إليه قائده « سعيد الحرشى » ولم يجد زعيم « المقنعية » بداً من الانتحار ، فشرب السم هو وأولاده ونساؤه فماتوا جميعا .

وحينما رأى المهدى تزايد الزنادقة ، وأنهم أصبحوا خطراً على الدين والدنيا وجه إليهم همه ، ووكل بهم « حمدويه » الذى عرف بصاحب الزنادقة ، والذى تعقبهم فى كل مكان حتى فتك بهم فتـكا ذريعـاً ، ولن ينسى التـاريخ الإسلامى للمهدى هذا الموقف من الزنادقة ؛ فقد بلغ من إيقاعه بهم أن أمر وزيره « معاوية بن يسار » أن يضرب بالسيف رأس ابنه على رءوس الملأ حينما علم بزندقته ، وكم كان موقفا أليمـاً ذلك الذى وقفه « أبو عبيد الله » تتنازعه عاطفة الأبوة وإرادة الخليفة التى لم يجد بداً من الامتثال لها ، وما إن جرد سيفه على فلذة كبده حتى خارت قواه فوقع مغشيا عليه ، وبمثل هذا الحزم استطاع المهدى أن يطهر البلاد من أدران المجوسية الفارسية .

على أن هذه الجذوة التى أطفأها المهدى عادت إلى الاشتعال مرة أخرى أيام المأمون والمعتصم ، فقد ظهرت « الخرَّمية »

— أتباع بابك الخرمى — وخرجوا على الخلافة انتقاما لأبى مسلم . وكانوا يرون أن المجوس أحق بالحكم من العرب .

نادى زعيم هذه الفرقة بمثل ما نادى به « مزدك » المجوسى من حيث الإباحية الجامحة وإسقاط الفروض الدينية عن العباد ؛ يقول نظام الملك : (إنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر ، ونادوا بإباحة المحرمات والاشتراكية فى النساء ، ويعتقد الإنسان أن هذه المبادئ مبادئ مزدك ويبذل هؤلاء دائما كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الإسلام قضاء مبرماً) .

على أن دعوتهم فى الواقع كانت سياسية أكثر منها دينية ، يدل على ذلك قول البلخى : (إن الخرمية احتالوا فى إزالة الملك إلى العجم ، فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ، ودعوا إليها فى السر ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد) .

وفى الوقت الذى ظهرت فيه « الخرمية » ظهرت فرقة أخرى كانت أشد خطراً على الإسلام وبالتالى على العرب . . ونعنى بها فرقة « الباطنية » التى تقول بأن لكل شيء ظاهراً وباطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، وهؤلاء هم أتباع ابن ديصان المعروف « بالقداح » مولى جعفر الصادق ويرون (أن الملائكة أنصارهم ،

والشياطين أعداؤهم ، والصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته والصوم الإمساك عن إفشاء سره) .

وكان لها فى العراق فرع يعرف بـ « القرامطة » نسبة إلى الملحد الثائر « حمدان بن قرمط » الذى وضع يده فى يد « القداح » وآزره فى دعوته .

كانت الباطنية تحتضن تعاليم « مزدك » وتذيعها فى الناس لتجذب نحوها قلوب العامة (فأباحوا لهم جملة اللذات والشهوات ، وأباحوا لهم نكاح البنات والأخوات وأسقطوا عنهم فرائض العبادات) كما يقول أبو الفضل اليمانى الذى كشف أسرارهم وأذاع أخباوهم .

حاول « المعتصم » القضاء عليهم فلم يقدر وأصبحت فيما بعد خطراً على الدولة حينما ادعى القداح النبوة ، وزعم للناس أن الأرض تطوى له فيمضى أين أحب فى أقرب مدة ، وكان يخبر بالأحداث فى البلدان الشاسعة وكان له أنصار وأتباع فى كثير من المواضع يعاونونه على نواميسه فيموه بذلك على الحاضرين . . . وكان أعوانه يتظاهرون بأنهم « شيعة اسماعيلية » ولكن الخلفاء فطنوا لذلك وكشفوا عن مآربهم الخفية . . . وفى ذلك يقول (برون Browne) : (وقد طعن الخلفاء العباسيون عليهم ،

وأثبتوا أنهم من أتباع الملحد الفارس عبد الله بن ميمون القداح الذى رأى فى فريق الإسماعيلية وسيلة صالحة لنشر تعاليمه الباطنية وآرائه المتطرفة لكى يتسنى له بذلك الوصول إلى غاياته السياسية ومطامعه الدينوية) كما يقول السير توماس أرنولد (Thomas Arnold) : (ويخيل إلىّ أنّ آمال عبد الله بن ميمون القداح كانت سياسية سلك إليها طريقا دينية) .

ويشير الرواة إلى أنهم فى سنة ٣١٢ هـ سطوا على الحجاج ونهبوا ما نهبوا وقتلوا من قتلوا ، وفى سنة ٣١٧ هـ تمكنوا من الاغارة على مكة المكرمة ، بقيادة رئيسهم بالبحرين أبو طاهر الجنابى الذى بلغ من الأمر أن اقتلع الحجر الأسود من الكعبة ولسانه يردد :

ولو كان هذا البيت لله ربنا
لصب علينا النار من فوقنا صباً
لأنّا حججنا حجة جاهلية
مجللة . لم نبق شرقا ولا غربا
وأنا تركنا بين زمزم والصفا
كتائب ليس تبغى سوى ربها رباً

ولكن ربّ العرش جل جلاله

ولم يتخذ بيتا ، ولم يتخذ حجبا

والواقع أنهم حينما أفزعتهم سيوف المسلمين ؛ لاجترائهم على الدين ، عمدوا إلى الحيل والأباطيل التى تصادف هوى فى نفوس الضعاف الذين يريدون أن يتحللوا من قيود الشرع وحدود الدين ، وأنهم قد اتخذوا من التشيع ستاراً لموقفهم من الإسلام والمسلمين .

* * *

هذا طرف من أخبار الزنادقة الذين ظهروا فى الدولة العباسية على أثر مقتل أبى مسلم الخراسانى ، وقد رأينا أنها كانت صدى للمجوسية الفارسية ، وامتداداً لمؤامرات الموالى ضد العرب ودينهم الحنيف .

* * *

٤ — الأسلوب العلمى

هذا أسلوب جديد من أساليب الصراع التى لجأ إليها الموالى للظهور على العرب ، بعد أن تخلى عنهم السلطان ، وتلاشت دياناتهم ولغاتهم المختلفة أمام دين الإسلام ولغة القرآن .

لقد أرادوا ان يكملوا أنفسهم بالثقافة ليعوضوا مافاتهم من

شرف الأصل وكرم العنصر ، وهم يعلمون علم اليقين أن سلاح العلم أمضى سلاح ، وللعلماء فى كل زمان ومكان دولة وصولة .

يقول ابن خلدون :

(ومن الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملّة الإسلامية أكثرهم من العجم ، وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو أعجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، على أن الملّة عربية ، وصاحب شريعتها عربى .

والسبب فى ذلك أن الملّة فى أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة ، لمقتضى أحوال السذاجة والبداوية . وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنّة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر العلم والتأليف والتدوين ، ولا رُفِعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة .

وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله (القرّاء) أى الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميّين ، لأن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عربا . فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء إشارة إلى هذا ، فهم قرّاء الكتاب والسنة المأثوره ؛ لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده

تفسير له وشرح ، قال صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى).

ثم قال : (ثم صارت هذه العلوم كلها ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع ، وقد قدمنا أن الصنائع منتحل الحضر ، وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية ، وبعد عنها العرب ، وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من مَن فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربّوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب ، وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف ، وكذلك حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه فيما بعد — إلا الأعاجم) .

ولعل من باب الإنصاف للعرب أن نشير هنا إلى ما فى قول

ابن خلدون من مبالغة ربما كان مدفوعاً إليها بدافع « العصبية الإقليمية » ، ونشير فى الوقت نفسه إلى ما كان للعرب من سبق علمى فى مختلف العلوم .

فأول واضع للنحو أبو الأسود الدؤلى .

وأول من دون الحديث الشريف الإمام مالك .

وأول من وضع أصول الفقه الإمام الشافعى .

وأول من وضع « علم العروض » الخليل بن أحمد الفراهيدى صاحب « كتاب العين » أول معجم لغوى عرفه المسلمون.

وأول من ألف فى الحيوان أبو عثمان الجاحظ .

وأول فيلسوف فى الإسلام أبو يعقوب الكندى .

والواقع أن العرب كان لهم فضل الابتداء والتقعيد ، أما العجم فكان لهم من بعد ذلك فضل التفريع والقياس والاستنباط، كما كانوا كثرة غالبة فى الدولة بعد عصر الصحابة والتابعين ، ثم كان لهم الفضل الأكبر فيما بعد فى العلوم الكونية بما نقلوه إلى العربية من تراث الفرس والروم واليونان وبخاصة فى أيام المنصور والرشيد والمأمون .

٥ — الصراع الأدبى :

ونعنى به هذه المهاترات التى دارت بين الفرس والعرب ، حينما وقف كل منهما يفخر بقومه ويستطيل بهم على الآخر . وقد أدى كل هذا إلى لجاجة شعوبية تجلت فى المفاخرات الكثيرة والأهاجى العديدة التى سجلها الأدب شعراً ونثراً .

أخذت الأمم الأعجمية التى زال سلطانها ودخلت فى حوزة العرب ، ترفع الرأس فى هذا العصر ، وتتيه فخراً على العرب بما كان لهم فى سالف الأيام من حضارة عريقة وسلطان واسع على الأمم المجاورة ، كما أخذوا فى الوقت نفسه يجردون العرب من كل فضيلة ، ويرمونهم بكل نقيصة ، مما حدا بالعرب أن يبادلوهم كيلا بكيل وهجاء بهجاء ، نلمح ذلك فى البقية الباقية التى احتفظ بها الأدب على مر السنين فى ميدانى الشعر والنثر .

أولاً — ميدان الشعر

هذا هو ميدان الصراع الأصيل الذى انفسح لصيحات الشعراء المتعصبين من الموالى والعرب . من حيث أن النفوذ الفارسى قد تزايد بمجىء العباسيين كما نعلم ، وأصبح للأعاجم دالة

على الخلفاء . ألم تخضب سيوف الخراسانيين بدماء الأمويين ؟ .

لهـذا بدأ الشعراء منهم يتنفسون بما كانوا يضمرون ، وانطلقت ألسنتهم التى عقدها الأمويون فى الأفواه ، تشيد بدولة الأكاسرة ، وإمبراطورية القياصرة ، وما كان لهما فى القديم من شرف وسؤدد . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الخطب ، ولـكن هؤلاء الشعراء أخذوا العرب بألسنة حداد ، يحطون من قدرهم ويغضون من شأنهم ، ويلعنون الزمن الذى علا بالعبيد ، وسفّـل بالملوك الصيد كما يقول بشار الذى سنبدأ به هذه الجولة من حيث أنه أقذع فى هجاء العرب ، وأمعن فى عداوته لهم حتى صار زعيم الشعوبية فى هذا العصر كما سنرى .

فن هم هؤلاء الشعراء النـاقون ؟ . . وما مدى عصبيتهم للفرس ، وتعصبهم على العرب ؟ .

لعل أظهرهم فى هذا المجال ، وأشدهم عصبية : بشار بن برد ، وأبو نواس ، والخريمى ، والمتوكلى ، وابن الرومى .

* * *

١ — بشار

تجلت عصبية بشار على العرب فى مظاهر عدة ... فى زندقته

وتنكره للإسلام ٪. وفى إشادته بقومه الفرس والاستطالة بهم على العرب ... كما تجلت أيضاً فى تحريض الفرس لنبذ الولاء للعرب .

أما زندقته فقد أشار إليها الجاحظ بقوله : كان بشار يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة — بعد الرسول — لأنها حادت عن الجادة ، فلما سئل عن على تمثل بقول عمرو بن كلثوم :

وما شر الثلاثة – أم عمرو – بصاحبك الذى لا تصبحينا

وكان يصوب رأى إبليس فى تفضيل النار على الطين ، وإبائه السجود لآدم . وفى ذلك يقول :

إبليس خير من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجار
إبليس من نار وآدم طينة والأرض لا تسمو سمو النار

وأما عصبيته لقومه واحتقاره العرب فنلمحها فى قوله :

هل من رسول مخبر عنى جميع العرب
من كان حياً منهم ومن ثوى فى الترب
بأننى ذو حسب عال على ذى الحسب
جدى الذى أسمو به كسرى وساسان أبى
وقيصر خالى إذا عددت يوماً نسبي
كم لى . وكم لى من أب بتاجه معتصب

يسعى إليها نيق له   بآنيات الذهب
لم يسق أقطاب سقا   يشربها فى الغلب
ولا حدا قط أبى   خلف بعير أجرب
إنا ملوكاً لم نزل   فى سالفات الحقب
نحن جلبنا الخيل من   « بلخ » بغير الكذب
حتى إذا ما دوخت   بالشام أرض الصلب
سرنا إلى مصر بها   فى جحفل ذى لجب
نحن ذوو التيجان والـ   ـملك الأشم الأغلب

وإذا كنا قد لمحنا قوميته الفارسية وعصبيته الجنسية تسود القصيدة ، ففى قصيدته التالية نستمع إلى هجاء فاحش وتهجم صريح . يقول أبو الفرج : (دخل أعرابى على مجزأة بن ثور السدوسى وبشار عنده ، وعليه بزة الشعراء . فقال الأعرابى : مَن الرجل ؟ فقالوا : شاعر . فقال : أمولى هو أم عربى ؟ فقالوا بل مولى . فقال الأعرابى : ما للموالى والشعر . فغضب بشار وسكت هنيهة ثم قال : أتأذن لى يا أبا ثور ؟ قال : قل ما شئت يا أبا معاذ . فقال :

خليلى لا أنام على اقتسار
ولا آبى على مولى وجار

سأخبر فاخر الأعراب عنى
وعنه حين تاذن بالفخار
أنا ابن الأكرمين أبا وأما
تنازعنى المرازب من طخار
إذا انقلب الزمان علا بعبد
وسفّل بالبطاريق الكبار
ملكناكم فطبنا عليكم
ولم نصبكم عرضا لزار
أحين كسيت بعد العرى خزاً
ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يابن راعية وراع
بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار
وكنت إذا ظمئت إلى قراح
شركت الكلب فى ولغ الاطار
تريد بخطبة كسر الموالى
وينسيك المكارم صيد فار
وتغدو للقنافذ تدّريها
ولم تعقل بدراج الديار

مقامك بيننا دنس علينا
فليتك غائب فى حر نار
ونخرك بين خنزير وكلب
على مثلى من الحدث الكبار

هذا . ولقد حدّث بشار عن نفسه فقال :

دخلت على المهدى فقال لى : فيمن تعتدّ يا بشار ؟ فقلت : أما الزى واللسان فعربيان . وأما الأصل فأعجمى كما قلت فى شعرى .

ونبئت قوما بهم جنة
يقولون : من ذا وكنت العلم
إلا أيها السائلى جاهداً
ليعرفنى أنا أنفُ الكرم
نمت فى الكرام بنو عامر
فروعى . وأصلى قريش العجم

وخاتمة القول فى بشار أنه كان يتبرأ من الولاء للعرب ، ويحرض الموالى على نبذ ولائهم فيهم . استمع إليه يقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم
مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها
أهل الفعال . ومن قريش المشعر

ولما توغل فى هذه السبيل ضجّ العرب ، وحاول بعضهم أن يصده عنها فكان بينهما ما كان من الهجاء المرير . يقول أبو الفرج فى أغانيه :

(إن رجلا شريفا من بنى زيد وقف على بشار فقال : يا بشار لقد أفسدت علينا موالينا ، تدعوهم إلى الانتفاء منا ، وترغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء ، وأنت غير زاكى الفرع ولا معروف الأصل .

فقال بشار : والله إن أصلى لأكرم من الذهب ، ولفرعى أزكى من عمل الأبرار وما فى الأرض كلب يود أن تربط نسبك بنسبه . ولو شئت أن أجعل جوابك شعراً لفعلت . ولكن موعدك غدا بالمربد فخرج الرجل إلى منزله وهو يتوهم أن بشارا يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فإذا رجل ينشده قصيدة كلها فحش وشتم . فسأل عمن قال هذا . فقيل له : هذا بشار فيك ، فرجع إلى منزله ولم يدخل المربد أبداً .

* * *

٢ — أبو نواس

ربما كان أبو نواس أمعن فى عدواته للعرب من بشار زعيم الشعوبية فى هذا العصر ؛ من حيث إنه لم يقف فى تعصبه عند حد اللجاجة . والمهاترات ، وإنما أراد النيل من العرب بأسلوب آخر أشد وقعاً وأنكى فتكا فقد نعى على الشعراء القدامى بدء القصائد بالوقوف بالأطلال وبكاء الديار وأهاب بالمحدثين أن يفتتحوها « بالخمريات » التى تسبي العقول، وتستهوى النفوس كما يرى . . . ولا شك أنه بذلك يريد أن يحقر من شأن القدامى ، ويطوى تراثهم الخالد الذى هو من مثارات الفخر عند العرب ، ومن ناحية أخرى يريد أن يفسح المجال لإباحة ما حرمه الله . استمع إليه يقول :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند
واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت من حلق شاربها
أجدته حمرتها فى العين والخد

وقد لجأ فى دعوته تلك إلى التهكم المرير والأسلوب الساخر الذى ينم على نزعته العدائية ، ونفسه الحانقة . استمع إليه يقول:

عاج الشقى على رسم يسـائله
وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد
لا درّ درّك . قل لى: من بنو أسد ؟ .
ومن تميمٌ ومَنْ قيس ولِيفهمو
ليس الأعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر
ولا صفا قلب من يصفو إلى وتد
كم بين ناعت خمر فى دساكرها
وبين باك على نؤى ومنتضد
دع ذا عدمتك واشربها معتقة
صفراء تفرق بين الروح والجسد

ويقول :

دع الربعَ ما للربع فيك نصيب
وما أن سبتنى زينب وكعوب
ولكن سبتنى البابلية إنها
لمثلى فى طول الزمان سلوب

ثم هو بعد ذلك يرمى لواقفين على الأطلال بالفدامة والغباوة فيقول :

صفة الطلول بلاغة الفدْم
فاجعل صفاتك لابنة الكرم

أما تهكمه المرير بهؤلاء الواقفين بها فنلمحه فى قوله :

قل لمن يبكى على رسم درس
واقفاً ماضر لو كان جلس
تصف الربع ومَنْ كان به
مثل سلمى ولبينى وخنس
اترك الربع وسلمى جانباً
واصطحب كرخية مثل القبس

أما عصبيته الجنسية فنلمحها فى اعتزازه بالفرس ، والتغنى بحضارتهم كما نلمحها فى تهكمه المرير بهذه الحياة البدوية بين الشيح والقيصوم والخلا والضريع والطلح والعرفج والذئاب والضباب .

فمن فارسياته قوله :

تراث أبى ساسان كسرى ولم تكن
مواريث ما أبقت تميم ولا بكر

وقوله فى مدح الخصيب الأعجمى والى مصر من قبل الأمين :

ذرينى أكثر حاسديك برحلة
إلى بلد فيه الخصيب أمير
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا
فأىّ فتى بعد الخصيب تزور
زها بالخصيب السيف والرمح فى الوغى
وفى السلم يزهو منبر وسرير
له سلف فى الأعجمين كأنهم
إذا استؤذنوا يوم السلام بدور

وما كان لنا أن نرد ذلك إلى العصبية الفارسية لولا أن الأمين نفسه قد فطن لمآربه ، وألمّ بسريرته فأنكر عليه قوله ، وأحرجه بسؤاله : « إذا قلت هذا فى مدح الخصيب فماذا أبقيت لى »؟؟

ولكن البديهة الحاضرة أسعفته ، واستطاع أن يجد لسؤاله مخرجا بارعاً ، به أرضى الخليفة ، وما أغضب الخصيب . وما كان جوابه إلا أن قال : « أبقيت لك قولى ياأمير المؤمنين

إذا نحن أثنينا عليك بصالح
فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة
لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

ومن فارسياته أيضا قوله :

بنينا على كسرى سماء مدامة
مكللة حافاتها بنجوم
فلو ردّ فى كسرى بن ساسان روحه
إذا لاصطفانى دون كل نديم

ومن حملته الشعواء على العرب قوله:

دع الرسم الذى دثرا يعانى الريح والمطرا
وكن رجلا أضاع الع مر فى اللذات والخطرا
ألم تر ما بنى كسرى وسابور لمن غبرا
منازه بين دجلة والف رات تفيّأت شجرا
بأرض باعد الرحما نُ عنها الطلح والعشرا
ولم يجعل مصايدها يرابيعا ولا وحرا
ولكن خود غزلان تراعى بالملا بقرا

وقوله :

يا ساحر الطرف أنت الدهرَ وسنان
سر القلوب لدى عينيك إعلان

غاد المدام وإن كانت محرمة
فللكبائر عند الله غفران
كانت على عهد نوح فى سفينته
ومن حر شحنتها والأرض طوفان
فلم تزل تعجم الدنيا وتعجمها
حتى تخيّرها بالحبء دهقان
فشأنها فى مغار الأرض فاختلفت
على الدفينة أزمان وأزمان
يبلدة لم تصل كلب بها طنبا
إلى خباء ، ولا عبس وذبيان
ليست لذهل ولا لشيبانها وطنا
لكنها لبنى الأحرار أوطان
أرض تبنّى بها كسرى دساكره
فما بها من بنى الرعناء إنسان
وما بها من هشيم العرب عرفجة
ولا بها من غذاء العرب حطبان
لكن بها جلّنار قد تفرعه
آس ، وكلله ورد وسوسان

فان تنسمت من أرواحها نسما
يوماً تنسم فى الخيشوم ريحان

وبمثل هذه العصبية ، وبمثل هذا الهجاء تناول العرب فى قوله

دع الأطلال تسفيها الجنوب
وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخلّ لراكب الوجناء أرضا
تحث بها النجيبة والنجيب
ولا تأخذ على الأعراب لهواً
ولا عيشا ، فعيشهمُ جديب
ذر الألبان يشربها أناسٌ
رقيق العيش عندهمُ غريب
بأرض نبتها عشر وطلح
وأكثر صيدها ضبع وذيب
إذا راب الحليب فبل عليه
ولا تحرج فما فى ذاك ريب

* * *

وأطيب منه صافية شمول
يطوف بكأسها ساقٍ أريب

يمـد بهـا اليك يدا غـلام
أغنّ كأنه رشـأ ربيب
فهـذا العيش لا خيم البوادى
وهـذا العيش لا اللبن الحليب
فأين البدو من إيوان كسرى
وأين من الميادين الزروب ؟

ومن مظاهر عصبيته أيضا هذه الضجة التى حرّض بها الموالى على نبذ الولاء وفصم الأواصر التى ربطت بينهم وبين العرب فإذا لم يستجيبوا لدعوته أخذهم بلسانه السليط ففى هجاء الرقاشى يقول :

قلت يوما للرقاشى وقـد سبّ الموالى
ما الذى نحاك عن أصـ ـلك من عم وخالِ
قال لى : قد كنت مولى زمنـا ثم بدا لى
أنا بالصيرة مولى عـربى بالجبـال
أنـا حقـا أدعيهم لسؤالى وهزالى

وفى هجاء الهيثم بن عدى يقول متهـكما من ادعائه العروبة والنسبة فى بنى عدى :

الحمد لله هذا أعجب العجب
الهيثم بن عدى صار فى العرب
يا هيثم بن عدى لست للعرب
ولست من طيء إلا على شغب
إذا نسبت عديا فى بنى ثعل
فقدم الدّال قبل العين فى النسب

هذه هى عصبية أبى نواس ، وتلك هى نزعته المدائية التى لم تكتف بالطعن على العرب ، بل طعن أيضاً على الموالى الذين يدعون النسبة العربية .

٣ — الخريمى

من أسرة فارسية ماجدة ، ولد فى بلاد الصغد واستقر به المقام فى بغداد . . وكان شعره يفيض « بالقومية الفارسية » التى تتيه بالكسروية وتحن إليها ، والتى تحط من قدر العرب ، ولكنه — على ما يبدو من شعره — كان مسلماً معتزا بإسلامه ، عاقلا مفتخرا بعقله ... استمع إليه يقول فى هجاء العرب :

أبا لصغد بأس إذ تعيّرنى « جمل »
سفاها ومن أخلاق جارتى الجهل

فإن تفخرى يا جمل أو تتجملى
فلا فخر إلا فوقه الدين والعقل
أرى الناس شرعا فى الحياة ولا يُرى
لقبر على قبر علاء ولا فضل
وما ضرنى أن تلدنى « يحابر »
ولم تشتمل «جرم» على « ولا عكل»
إذا أنت لم تحم القديم بحادث
من المجد لم ينفعك ما كان من قبل

ثم استمع إليه أيضاً وهو يعتز بقومه ويستطيل بهم على العرب ... يقول :

وناديت من مرو وبلخ فوارسا
لهم حسب فى الأكرمين حسيب
فيا حسرتا ! لا دار قومى قريبة
فيكثر منهم ناصرى ويطيب
وإن أبى ساسان كسرى بن هرمز
وخاقان لى لو تعلمين نسيب

ملكنا رقاب الناس فى الشرق كلهم
لنا تابع طوع القياد جنيب
نسومكمو خسفا ، ونقضى عليكمو
بما شاء منا مخطىء ومصيب
فلما أتى الإسلام وانشرحت له
صدور به نحو الأنام تنيب
تبعنا رسول الله حتى كأنما
سماء علينا بالرجال تصوب

٤ — المتوكلى :

إبراهيم بن ممشاذ الأصفهانى ، رحل إلى العراق ، واتصل بالخليفة المتوكل فنسب إليه ، وصار من خاصة ندمائه ، وكانت له لباقة الفرس التى مكنت له فى البلاط ولكنه كشف عن عصبيته بعد موت الخليفة الذى كان باراً به ، أثيرا عنده فأطلق لسانه فى هجاء العرب والتطاول عليهم بآبائه الفرس ، استمع إليه يقول :

أنا ابن الأكارم من نسل « جم »
وحارث إرث ملوك العجم
ومحيي الذى باد من عزهم
وعفّى عليه طوال القدم

وطالب أوتارهم جهرة
فمن نام عن حقهم لم أنم
معى عَلم « الكابيان » الذى
به أرتجى أن أسود الأمم
فقل لبنى هاشم أجمعين
هلموا إلى الخلع قبل الندم
ملكناكمُ عنوة بالرما
ح طعناً ، وضربا بسيف خَذم
وأولا كمُ الملك آباؤنا
فما أن وفيتم بشكر النعم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز
لأكل الضباب ورعى الغنم
فأنى سأعلو سرير الملوك
بحد الحسام وحرف القلم

٥ — ابن الرومى :

وهذا شاعر أعجمى كذلك ، ولكنه ليس من الفرس بل من الروم ، ويبدو أن الموالى على اختلاف أجناسهم قد اجتمعوا

على كره العرب الذين بسطوا نفوذهم على الخافقين ، وصاروا أصحاب الدولة والصولة على سليلى الحضارات . إلا أن عصبية الفرس كانت أمعن فى الكيد للعرب من سواها ، من حيث إنها الأمة الشامخة التى غزاها الفتح الإسلامى أو طواها عن آخرها . أما الروم فقد وقف الإسلام عند حدودها بعد أن قلمّ أظافرها ، وقص أجنحتها فى مصر والشام والأندلس . ومن ثم لم نجد « لابن الرومى » من الشعر فى هجاء العرب مثل ما وجدنا لموالى الفرس ، وإنما وقفت به العصبية عند حد التطاول بآبائه الروم ، وأخواله الفرس . . . وفى ذلك يقول :

آبائى الروم توفيل وتوفلس
ولم يلدنى ربعى ولا شبث

ويقول فى زهو الغرور :

إن لم أزر ملكاً أشجى الخطوب به
فلم يلدنى أبو الأملاك يونان
بل إن بعدت فلم أحسن سياستها
فلم يلدنى أبو السواس ساسان

كما يقول :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجاً
وبجد وعيدان صلاب المعاجم

وقد بلغ به الأمر أن استطال على العرب أيضا بشاعريته وعبقريته وفى ذلك يقول :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب

* * *

٦ — مهيار الديلمى

أحد شعراء العجم البارزين فى العصر العباسى الثالث ، أيام « بنى بويه » الذى استطاعوا بحد السيف أن يستردوا من الترك سلطان الفرس المسلوب.

أسلم على يد الشريف الرضى ، وفى شعره نراه دائم الاعتزاز بهذا الدين الجديد ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يتخل عن « قوميته الفارسية » .

استمع إليه يقول :

أعجبت بى بين نادى قومها
« أم سعد » فمضت تسأل بى

سرها ما علمت من خلقى
فأرادت علمها : ما حسبي ؟
لا تخالى نسبا يخفضنى
أنا من يرضيك عند النسب
قومى استولوا على الدهر فتى
ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم
وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى علا إيوانه
أين فى الناس أب مثل أبى ؟
قد قبست المجد من خير أب
وقبست الدين من خير نبى
وضممت الفخر من أطرافه
سؤدد الفرس ودين العرب

ويبدو أنه كان قبل إسلامه شديد العصبية للفرس ، كثير الزراية بالعرب . نلمح ذلك فى قوله :

أتعلمين يابنة الأعاجم
كم لأخيك فى الهوى من لائم

وهو مع المجد على سبباله
ماض مضاء المشرفي الصارم
ممتثلاً ما سنه آباؤه
إن الشبول شبه الضراغم
من أيكة مذ غرستها فارس
ما لان غمزا فرعها لعاجم
مَن فرسَ الباطلَ بالحق ومن
أرغمَ للمظلوم أنف الظالم ؟
إلا بنو ساسان أو جدودهم
طرا نجوا فيهم أو بالقوادم
لا غرو ، والدنيا بهم طابت إذا
لم تحل فيها بعدهم لطاعم
ما اختصمتني فيهمُ قبيلة
إلا وكنت غصة المخاصم
ياناحلي مجدهم أنفسهم
هبّوا . فللأضغاث عين الحالم
شتان رأس يفخر التاج به
وأرؤس تفخر بالعمائم

ترى . هل كان « مهيار بن مزرويه » سوى نغمة من نغمات الشعوبية التى سادت الدولة أيام بنى بويه . . .؟

* * *

« وبعد » فهذا طرف من ألوان العصبية الجنسية فى هذا العصر الذى علن فيه أمر الشعوبية ، على أن العرب لم يقفوا ازاء هذه الصيحات — مكتوفى الأيدى ، محبوسى الألسنة وإنما هبّوا يناخون عن أمجادهم ، ويقابلون العدوان بالعدوان . . . فماذا كان من أمرهم . . . ؟ هذا ما سنراه فيما يلى .

القومية العربية

في هذا العصر الذي تزايد فيه نفوذ الفرس ، انطلقت ألسنة الشعراء الموالى فى النيل من العرب كما رأينا . ولم يشأ خلفاء بنى العباس أن يقطعوها بحد السيف حتى لا يثيروا عليهم غضبة الأعاجم فى مختلف البقاع . . . تلك الغضبة التى أطاحت من قبل ببنى أمية . ولكن ذلك لم يمنع شعراء العرب الغُيُر من أن يتصدوا لهم بلسان أمضى من السيف ، معتزين بأصولهم الزكية ، ومواهبهم الفطرية ، وسجاياهم المثلى التى بها عرفوا ، وبها سادوا وشادوا .

* * *

شهد العصر العباسى إذا هذه الصفحة الأليمة من صفحات الصراع بين العرب والعجم ، ولكن التاريخ الأدبى لم يحتفظ لنا إلا بالقليل من شعر العرب، ولعل مرجع ذلك أن أعلام الرواية والتدوين فى هذا العصر كانوا من الفرس ، وللقومية الفارسية هوى فى نفوسهم ، فكيف يسجلون عنها ما يشينها أو يحط من قدرها ، ومن ناحية أخرى أن الشعراء العرب إذ ذاك كانوا — فى هذا المحيط الفارسى — مهيضى الجناح ، مفلولى الشوكة

يخشون على أنفسهم من الكيد لهم والغدر بهم إن هم رفعوا الصوت فى هجاء الفرس أصحاب السلطان ... وقد صرح بذلك الشاعر العربى الجرىء « محمد بن يزيد الحصنى » الذى تصدى للرد على « عبد الله بن طاهر بن الحسين » حينما شمخ بقومه على العرب مما أحنق عليه قلب القائد الفارسى على نحو ما سنرى، فمن قصيدة عبد الله بن طاهر قوله :

أنا من تعرفن نسبته ... سلفى الغر البهاليل
مصعب جدى نقيب بنى ... هاشم والأمر مجهول
وحسين رأس دعوتهم ... ودعاء الحق مقبول
سل بهم تنبيك نجدتهم ... مشرفيات مصاقيل
وأبى من لا كفاء له ... مَنْ يساوى مجده ؟ قولوا
سل بهم والخيل ساهمة ... حوله جردٌ أبابيل
بطّن المخلوع كلكله ... وحواليه المقاويل
فثوى والترب مضجعه ... غال عنه ملكه غول
قاد جيشا نحو بابله ... ضاق عنه العرض والطول
من خراسان مضى معهم ... كليوث ضمها غيل
ملك تجتاح صولته ... ونداه — الدهر — مبذول

وفى الرد عليه يقول ابن يزيد الحصنى :

(وكنت لما بلغتنى هذه القصيدة امتعضت للعربية ، وأنفتُ للمنافيّـة أن يفخر عليها رجل من العجم ، لأنه قتل ملـكا من ملوكهم بسيف أخيه لا بسيف نفسه ؛ فيفخر عليها ويضع منها هذا الوضع ، فرددت عليه قصيدته ولم أدر أن الزمان يجمعنا ، والأيام تضطرنى إلى الخوف منه . فقلت :

لا يرعك القـال والقيل — كل ما بلغت تهويـل
قـد تأولت على جهة — ولتـأويلك تأويـل
قاتل « المخلوع » مقتول — ودم القـائل مطلول
سار أو حـلّ فتبع — بالتى يـكبو لها الفيل
ومدين القوم مرتهن — بدماء القـوم مقتول
بيد المخلوع طلت يداً — لم يـكن فى باعها طول
يا ابن بنت النار موقدها — ما لحـاذيه سراويـل
أى مجـد لك ترفعه — أو نسيب لك يهـلول
من حسين ؟ وأبوك ؟ ومن — مصعب ؟ غالهـم غول
ماجرى فى عود أثلتكم — ماء مجـد فهو مدخول
إن خير القول أصدقه — حين تصطك الأقاويل
كن على منهاج معرفة — لا تغرنك الأباطيـل

* * *

فلما بلغت عبد الله بن طاهر عاتبه بقوله : (يا هذا . ما حملك على أن تكلفت إجابتى ؟ قلت : الأمير أصلحه الله حملنى على ذلك فقال بماذا ؟ قلت : بقوله .

وأبى من لا كفاء له من يساوى مجده ؟ قولوا

* * *

ولما بلغت هذه القصيدة « علاّنا الشعّوبى » غضب لقومه الفرس وأجاب الحصنى بقصيدته التالية التى يمدح فيها ابن طاهر ويفضل فيها العجم على العرب ... استمع إليه يقول :

أيها اللاطى بحفرته ... فى قرار الأرض مجعول
قد تجالت على دخل ... واستخفتك التهاويل
وأبو العباس غادية ... لعزاليه الأهاطيل
تمطر العقيانَ راحتهُ ... وله بالجود تهطيل
رستمى فى ذرا شرف ... زانه تاج وإكليل
وعليه من جلالته ... كرم عِدّ وتبجيل
إن لى فخرا مباءته ... فى قرار النجم مأهول
ورجالا شربهم غدق ... هم لما حازوا مباذيل
كسرويات أبوتنا ... غرر زهر مقاويل

* * *

هذا مثل من أمثلة « النقائض الشعوبية » التى حلت فى هذا العصر محل « النقائض القبلية » فى العصر الأموى ، وثمة أمثلة أخرى لهذه المناقضات . . فمن ذلك ما رواه « البديع » بقوله :

« كنت عند الصاحب بن عباد إذ دخل عليه أحد شعراء العجم وأنشده قصيدة يفضل فيها قومه على العرب ويقول :

غنينا بالطبول عن الطلول ... وعن عنس عذافرة ذمول
فلست بتارك إيوان كسرى ... لتوضح أو لحوامل فالدخول
وضب فى الفلا ساع وذئب ... بها يعوى وليث وسط غيل
يسلون السيوف لرأس ضب ... حراشا بالغداة وبالأصيل
إذا ذبحوا فذلك يوم عيد ... وإن نحروا ففى عرس جليل
أما لو لم يكن للفرس إلا ... نجار الصاحب القرم النبيل
لكان لهم بذلك خير فخر ... وجيلهم بذلك خير جيل

فالتفت إلىّ « الصاحب » وقال : أجب عن ثلاثتك : أدبك ونسبك ، ومذهبك . فقلت :

أراك على شفا خطر مهول ... بما أودعت لفظك من فضول
تريد على مكارمنا دليلا ... متى احتاج النهار إلى دليل ؟
ألسنا الضاربين جزىً عليكم ... وان الجزى أولى بالذليل
متى قرع المنابر فارسى ... متى عرف الأعز من الحجول؟

متى عرفتْ — وأنت بها زعيم أكف الفرس أعراف الخيول.

ولما فرغت من إنشادى التفت اليه (الصاحب) وقال : جائزتك عندى جوازك . والله إن رأيتك بعد هذا ضربت عنقك ثم قال : لا أرى أحداً يفضل العجم إلا وفيه عرق من المجوسية ينزع إليه »

ومن ذلك أيضاً قصيدة « نقفور الثانى » ملك الروم التى بعث بها إلى الخليفة « المطيع لله » أمير المؤمنين ، وفيها من ضروب التريب والوعيد والتهديد ماسنراه . . . يقول :

أما سمعت أذناك ما أنا صانع
بلى . فعدّاك العجز عن فعل حازم

ثغوركمُ لم يبق فيها لوهنكم
وضعفكم إلا رسوم المعالم

فتحنا ثغور الأرمنية كلها
بفتيان صدق كالليوث الضراغم

ونحن جلبنا الخيل تعلك لجمها
ويلعب منها بعضها بالشكائم

إلى كل ثغر بالجزيرة آهل
إلى جند قنسرينكم والعواصم

ومرعش أذللنا أعزة أهلها
فصارت لنا من بين عبد وخادم
وملنا على طرسوس ميلة غامر
أذقناهمُ فيها بحر الحلاقم
وإقريطش مالت إليها مراكبي
على ظهر بحر مزبد متلاطم
فخزناهم أسراً وسيقت نساؤهم
ذوات الشعور المسبلات الفواحم
و « إنطاك » لم تبعد عليّ وإنني
سألحقها يوماً بغزوة حازم
ومصر سأفتحها بسيفي عنوة
وأحرز أموالا بها فى غنائمي
وكافورُ أعزوه بما يستحقه
بمشط ومقراض ومص المحاجم
ألا شمروا يا أهل بغداد ويلكم
فلككمُ مستضعف غير دائم

فناقضه الإمام « القفّال الشاشى » بقوله :

أتانى مقال لامرىء غـير عالم
بطرق مجارى القول عند التخاصم
تثبت — هداك الله — إن كنت طالباً
لحق فليس الخبط فعل المقاسم
ولا تتكبر بالذى أنت لم تنل
كلابس ثوب الزور وسط المقادم
ترى . نحن لم نوقع بكم وبلادكم
وقائع يثنى ذكرها فى المواسم
طردناكم قهراً إلى أرض رومكم
فطرتم من السامات . طرد النعائم
ولولا وصـايا للنبي محمـد
بكم لم تنالوا مثل تلك المجائم
وعددت بلدانا تريد افتتاحها
وتلك أمانٍ ساقها حلم حالم
لئن كان بعض العرب طارت قلوبهم
أو ارتد منهم حشوة كالبهائم
لقد أسلمت بالشرق هند وسندها
وصين وأتراك الرجال الأعاجم

ونرجو بفضل الله فتحاً معجلا
ينال بقسطنطين ذات المحارم
هناك يرى نقفور والله قادر
ينادى عليه قائما فى المقاسم
فيضحك منا سن جذلان باسم
ويقرع منا سن خزيان نادم
وإن تسلموا فالسلم فيه سلامة
وأمنا عيش للفتى عيش سالم

وثمة شعراء آخرون ، ممن تجرى فى عروقهم دماء العروبة ، وتضيق صدورهم بالزهو الفارسى ، عز عليهم ما رأوه من استعلاء الموالى ، وتطاولهم بالحضارة حيناً ، وبالأصول الكسروية حيناً آخر .

وإذا كان الخلفاء هم الذين مكنوا للفرس فى البلاط ، وهم أيضا الذين أطلقوا أيديهم فى مختلف الشئون ، فلم يسلموا لذلك من « الغضبة المضرية » . . . استمع إلى أبى خالد . . يزيد المهلبي . يقول فى رثاء المتوكل . .

أضحى شهيد بنى العباس موعظة
لكل من فى رأسه صَيَدُ

خليفة لم ينل ما ناله أحد
ولم يُضع مثله روح ولا جسد

ثم هو بعد ذلك يكشف عن هذه السياسية العباسية الضالعة مع الفرس ويحمل ولاة الأمور مغبة ذلك فيقول .

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم
ضعتم وضيعتم مَن كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم
حمتكمُ السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم
والمجد والدين والأرحام والبلد
إن العبيد إذا أذللتهم صلحوا
على الهوان وإن أكرمتهم فسدوا
إذا قريش أرادوا شد ملكهمو
بغير قحطان لم يبرح بها أودُ

ثانياً — مَيدَانُ النَّثر

صارت الكتابة فى هذا العصر ، كما كانت عليه أيام دولة الأكاسرة . . طريق الوزارة والحجابة ، والاتصال بصاحب

السلطان . . . ومن ثم فقد حرص عليها الموالى ؛ لينالوا الحظوة عند الخلفاء ، وليمكّنوا لأنفسهم فى البلاط.

وإذ كانوا — بحكم ثقافتهم المختلفة ، ومرانتهم على أساليبها — أقدر من العرب ، فقد تمّ لهم ماأرادوا ؛ وأصبحوا من ذوى النفوذ فى الدولة .

فى هذا الجو الجديد استطاعوا أن يتنفسوا بما فى صدورهم من كراهية للعرب ، وأن يصاولوهم بأقلامهم بعد أن ظلوا طوال القرن الماضى معقودى اللسان ، خوفاً من بطش الأمويين ، وبذلك علن أمر « الشعوبية » ، وارتفع صوتهم فى هذا العصر .. فماذا كان من أمرهم . . ؟ ؟ ومام وقف العرب منهم ؟ ؟

مطاعن الشعوبية

نادت الشعوبية بالمساواة التامة بين جميع الشعوب والأجناس طبقا لتعاليم الإسلام ، لا فرق بين شعب وشعب ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وفى ذلك يقولون : (ألا ترى من كان دنىء الهمة ، ساقط المروءة لم يشرف وإن كان من هاشم فى ذؤابتها ومن أمية فى أرومتها ومن قيس فى أشرف بطونها ؛ إنما الكريم من كرمت فعاله ، والشريف من شرفت همته) ، وإذا كانوا

ينادون بالمساواة فقد عرفوا باسم « أهل التسوية » .

ومن ذلك نرى إنهم ينكرون تفاضل النـاس فيما بينهم بالأحساب والأنساب ، وينكرون على العرب بالتالى هذا التفاخر القائم على الجنس والله سبحانه وتعالى يقول : (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) ويقول (إنما المؤمنون إخوة) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (المؤمنون تتكافأ دماؤهم) ويقول : (. . . كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

وقد رد العرب عليهم بأن الناس حقاً سواسية فى الأمور الدينية وأمام الخالق جل وعلا . أما فى أمور الحياة فلا مجال للأخذ بها ؛ وإلا أصبحت الميزات المترتبة على المركز أو الأصل معطلة ، والأحاديث النبوية التى تثبت ذلك كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم (إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه) وقوله : (أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم) .

وقد رد أهل التسوية بأنهم إن سلموا بفروق الطبقة والمركز فإنهم لا يسلمون بقيام هذه الفروق على الأصل والمولد ؛ بل تقوم فقط على المزايا الشخصية فهذا عامر بن الطفيل يقول :

وإنى وإن كنت ابن سيد عامر
وفارسها المغوار فى كلّ مركب
فما سودتنى عامر عن وراثة
أبى الله إن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها وأتقى
أذاها . وأرمى من رماها بمنكب

كانت المساواة بين الطرفين هى أمنية الموالى ، فلما سلم العرب لهم بذلك عقدوا عليه الخناصر ، وأخذوا يجاهرون بما هو أبعد . . . بتفضيل العجم على العرب ومن ثم قام الصراع عنيفاً بين هؤلاء وهؤلاء .

« ولما فخرت العرب بنفسها وقالت : لاتساوينا العجم وإن تقدمتنا إلى الإسلام ، وصلت حتى صارت كالحنىّ ، وصامت حتى صارت كالأوتار ، قالت الشعوبية . كيف تفخرون وقد نهاكم نبيكم — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك ؟

ولا ندرى بِمَ تفخرون ؟ أبالملك أم بالنبوة ؟

فإن كان بالملك ، فأين ملككم من ملك الفراعنة والعمالقة والنماردة والقياصرة والأكاسرة ؟ بل أين ملككم من ملك سليمان عليه السلام الذى أوتى من الملك مالا ينبغى لأحد من

بعده ، والذى سخر له الأنس والجن والطير والريح . . ؟ بل أين ملككم من ملك الإسكندر الأكبر الذى شرق وغرب حتى بلغ مطلع الشمس ومغربها . . ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التى أسسها فى قعر البحر ، وجعل فى رأسها مرآة يظهر البحر كله فى زجاجها لكفاه فخرا .

وإن كان الفخر « بالنّبوة » فمنا الأنبياء والمرسلون قاطبة عدا أربعة : هوداً أوصالحا وإسماعيل ، ومحمداً عليهم الصلاة والسلام ، ومنا المصطفون من العالمين . آدم ونوح عليهما السلام وهما أصلا العالم اللذان تفرع عنهما البشر . فنحن الأصل وأنتم الفرع . . . إنما أنتم غصن من أغصاننا ، فقولوا بعدها ما شئتم وادعوا »

ثم قالوا : (فلما أتى الله بالاسلام كان للعجم شطره ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى الأحمر والأسود من بنى آدم وكان أول من تبعه حرٌ وعبد هما ، أبو بكر وبلال ، ولما شعر عمر بن الخطاب بدنو الأجل قدّم صُهَيْباً الرومى على المهاجرين والأنصار ، وفى ذلك يقول الشاعر :

هذا صهيب أم كلٍ مهاجر
وعلا جميع قبائل الأمصار

لم يرض منهم واحداً لصلاتنا
وهم الهداة وقادة الأخيار
مازال هذى العجم تحيا دوننا
إن العريب لفى عمى وخسار

ثم فخروا بإسحاق بن ابراهيم عليهما السلام، وأنه لسارة الحرة، وإن إسماعيل — النبي العربى — لأمة هى هاجر، وفى ذلك يقول أبو نواس أحد رؤوس الشعوبية البارزين.

فى بلدة لم تصل كلب بها طنبا
إلى خباء، ولا عبس وذبيان
ليست لذهل ولا شيبانها وطنا
لكنها لبنى الأحرار اوطان
أرض تبنّى بها كسرى دساكره
فما بها من بنى اللخناء إنسان

فبنو الأحرار عندهم «العجم» وبنو اللخناء «العرب» لأنهم من ولد هاجر وهى امة.

يقول ابن قتيبة فى الرد عليهم: وهل لملحد — فضلا عن مسلم أن يسميها كذلك، وهى التى طهرها الله، وارتضاها للخليل فراشا، وللطيبين: إسماعيل ومحمد، أمّا؟

وقد يبدو عجيباً أن نرى ابن قتيبة — وهو الفارسي أصلا — يناصر العرب ، ويدافع عنهم بقوة وحرارة حتى ليخيل إلينا أنه عربي أكثر من العرب ، فحينما طعن أبو نواس على العرب — في شعره السابق ، ووصفهم بأنهم بنو اللخناء لأنهم من السيدة هاجر ، عابه وخطأه بقوله « ليس كل أمة يقال لها لخناء ؛ إنما اللخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل وسقيها ، وجمع الحطب واستسقاء الماء .

وحينما تهكم أبو عبيدة معمر بن المثنى الفارسي من المفاخر العربية التي يشير إليها الشاعر بقوله :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك

ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

وتضاحك بالشعر واستهزأ بذي البردين ، والفرس والورد ، وعارض ذلك بملوك فارس وأسرتها وتيجانها وأن « أبرويز » كان يربط على مرابطه تسعمائة وخمسين فيلا ، وتخدمه ألف جارية .

نقول : حينما فعل ذلك أبو عبيدة رماه بالجهل لمعنى الشعر ، وبالخطأ في المعارضة ، وبالفخر بما ليس له فيه حظ ولا نصيب ، ثم أخذ في إيضاح ذلك ، فأشار إلى أن للشعر قصة لو ألم بها

أبو عبيدة لأدرك ما وراءها من صفحات البطولة ، وفرغ من ذلك إلى « أن العرب قد تنسب إلى شيء خسيس فى نفسه وليس ذلك إلا لمعنى شريف فيه .

أما خطأ المعارضة فقد أوضحها بقوله : (إن صاحب البردين لم يكن ملك العرب فيعارضنا عنه بملك العجم ، ولم يدع أحد أنه كان للعرب فى دولة العجم مثل ملكها وأموالها وعددها وسلاحها وحريرها وديباجها فيحتاج أن يذكر « قيلة أبرويز » وجواريه وفرشه ، وقد كان هذا لأولئك كما ذكر ثم جعله الله لهؤلاء فابتزوه واستلبوه ، والناسخ أفضل من المنسوخ .

وأما فخره بما ليس له فيه حظ ولا نصيب فقد أشار إلى أن الجدير بهذا الفخر — بملك فارس — أبناء الملوك والعمال والكتاب ، والحجاب والأساورة . . . فأما رجل من عُرض العجم وعوامّهم لا يعرف له نسب ، فما حظه فى سرير كسرى وتاجه وحريره وديباجه وليس هو من ذلك فى مراح ولا مغدى ولا مظل ولا مأوى . فإن قال : « لأنى من العجم وكسرى من العجم فرحباً بالمثل المبتذل : قيل لرجل — فى ميدان السباق — معجب بالجواد السابق . أهذا الجواد لك ؟ قال : لا . ولكن اللجام لى .

وقد كانت العجم — رحمك الله — فى ذلك الزمان طبق الأرض شرقاً وغرباً . أفكل هؤلاء أشراف ؟ فأين الوضعاء والأدنياء ، والكساحون ، والحجامون والدباغون .. . ؟ وهل كان ذوو الشرف فى جملة الناس إلا كاللمعة فى جلد البعير . واين ذرارتهم وأعقابهم ؟ أدرجوا جميعاً فلم يبق منهم أحد وبقى أبناء الملوك والأشراف ؟

هذا هو موقف « ابن قتيبة » من أعداء العرب الذين حاولوا انتقاص قدرهم ، وقد استطاع إلى حد كبير أن يفند أقوالهم ، ويدرأ عن العرب سهامهم ... ومن ثم كان — وهو الفارسى أصلا — من أكبر أنصار العرب .

ومما أنكرته الشعوبية على العرب أيضا : الخطابة ، وحمل العصىّ والقسىّ أثناء الخطبة ، كما عابت عليهم أساليبهم الحربية وأدوات القتال . .

وقد تصدى للرد عليهم أبو عثمان الجاحظ الذى أفرد لذلك الصفحات العديدة من كتبه المختلفة .

فحينما تطاول الموالى على العرب وجردوهم من صفة الخطابة التى بها يعتزون ، وبها يمتازون وينفردون وقف الجاحظ يفند آراءهم ويدحض مفترياتهم بقوله :

« وجملة القول أننا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس .. إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ... وكل شيء للعرب فهو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة . .

وحينما عابت الشعوبية على العرب حمل العصا أو القوس أو المِخْصَرة عند الخطابة وقالت إنه ليس بين الكلام وبين العصا سبب ، ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر ، ويعترضا الذهن أشبه . . . حينما فعلت ذلك أشار الجاحظ إلى فضل « العصا » ومدى الحاجة إليها كما أشار إلى أنها محمودة فى القرآن والسنة والتوراة وأحاديث القدماء ، بل محمودة فى الشعر أيضاً على ألسنة شعراء العجم . . يقول أبو نواس فى « الخصيب » والى مصر حينما اضطرب عليه أهل البلاد .

فان تك من فرعون فيكم بقية
فان عصا موسى بكف خصيب

أما أساليب القتال وآلات الحروب فلم تسلم أيضاً من لسان الشعوبية ،فذكروا أن أسنتهم من قرون البقر ، وأنهم يركبون

الخيل فى الحروب بلا سروج ؛ فإن كان لها سرج فهو خال من الركاب الذى يعين الطاعن برمحه ، والضارب بسيفه .

كما عابوا على العرب « أنهم لا يقاتلون ليلا ، ولا يعرفون البيات ولا الكمين ، ولا الميمنة والميسرة ، ولا القلب ولا الجناح ، ولا يعرفون الخنادق والمجانيق ولا الطبول ولا البنود ... » .

وفى كتاب البيان والتبين للجاحظ كثير من أمثال هذه المطاعن التى تصدى للرد عليها أبو عثمان فذكر من الرماح العربية أشكالا وألوانا بأسمائها المختلفة « كالنيزك ، والمربوع ، والتام ، والخطل » كما ذكر لكل نوع وظيفة ولكل سلاح ميدانا .

وأما السرج والركاب فذكر أن العرب كانت عند الضرورة تصطنع هذا وذاك ولكنها كانت تؤثر أن تنزو على الخيل نزوا خشية السمنة والاسترخاء وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب للمهاجرين والأنصار : (اخشوشنوا واقطعوا الركب ، وانزوا على الخيل نزوا) .

وهكذا مضى الجاحظ يفند أقوالهم ويدحض مفترياتهم ، وهو فى ذلك كله يقابل الحجة بالحجة ويقرع الدليل بالدليل ،

ويستشهد لقوله بالمنظوم والمنثور من كلام القدامى الذين خلدوا بأقوالهم مفاخر العرب فى الجاهلية والإسلام .

والواقع أن الجاحظ قد تعقب الشعوبية فى كل مكان ، ونكل بهم فى كل ميدان تشهد بذلك كتبه ورسائله . . . حاربهم فى البيان والتبيين وتعقبهم فى . . البخلاء ، والحيوان ، والمحاسن والاضداد ، وبعض رسائله الأخرى ؛ كما تعقبهم فى غير ذلك من الكتب العديدة التى بادت ولم يبق منها سوى أسمائها تنطق بمضمونها ، فمما لاشك فيه أنه كان له معهم جولات واسعة فى الكتب التى أشار إليها ياقوت فى معجمه ككتاب العرب والموالى ، والصرحاء والهجناء والعرب والعجم ، ولو بقيت حتى اليوم لرأينا صفحات مطوية من صفحات الصراع الأدبى بين العرب والعجم .

(وبعد) فهذا هو دفاع الجاحظ الحار ، الذى ناهض به الشعوبية ، وأنصف به العرب ، ومن ثمّ لم يسلم من كيد الموالى فى البلاط العباسى . . . رحم الله أبا عثمان . . ، وجزاه عن « القومية العربية » خير الجزاء . . ؟

محمد نبيه حجاب

المعادى فى سبتمبر سنة ١٩٦١ م

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين		للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الاشتراكية والشيوعية		للأستاذ على أدهم
٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي		للدكتور عبد الحميد يونس
٤ — قصة التطور	... ...	للدكتور أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر	... ...	للدكتور پول غليونجى
٦ — فجر القصة	... ...	للأستاذ يحيى حقى
٧ — الشرق الفنان	... ...	للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان	... ...	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩ — أعلام الصحابة	... ...	للأستاذ محمد خالد
١٠ — الشرق والإسلام	... ...	للاستاذ عبد الرحمن صدقى
١١ — المريخ	... ...	للدكتور جمال الدين الفندى والدكتور محمود خيرى
١٢ — فن الشعر	... ...	للدكتور محمد مندور
١٣ — الاقتصاد السياسى	... ...	للاستاذ أحمد محمد عبد الخالق
١٤ — الصحافة المصرية	... ...	للدكتور عبد اللطيف حمزة
١٥ — التخطيط القومى	... ...	الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن
١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية	... ...	للدكتور ثروت عكاشة
١٧ — اشتراكية بلدنا	... ...	للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للاستاذ حسن عباس زكى
١٩ — التشريع الإسلامى وأثره في الفقه الغربى } للدكتور محمد يوسف موسى
٢٠ — العبقرية فى الفن ... ... للدكتور مصطفى سويف
٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر ... للأستاذ محمد صبيح
٢٢ — قصة الذرة ... . للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد أحمد بدوى
٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى ... للدكتور أحمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته ... ... للاستاذ عبد الوهاب حمودة
٣٣ — أعلام الصحابة (المجاهدون) ... للأستاذ محمد خالد
٣٤ — الفنون الشعبية ... ... للأستاذ رشدى صالح
٣٥ — إخناتون ... ... للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة ... ... للدكتور محمود يوسف الشواربى
٣٧ — الفضاء الكونى ... ... للدكتور جمال الدين الفندى
٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام ... للدكتور شكرى محمد عياد
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر ... ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج

٤١ — العدالة الاجتماعية ... ... للأستاذ المستشار عبد الرحمن نصير
٤٢ — السينما والمجتمع ... ... للأستاذ محمد حلمى سليمان
٤٣ — العرب والحضارة الأوربية ... للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥ — صراع على أرض الميعاد ... للأستاذ محمد عطا
٤٦ — روّاد الوعى الإنسانى ... ... للدكتور عثمان أمين
٤٧ — من الذرة إلى الطاقة ... ... للدكتور جمال الدين نوح
٤٨ — أضواء على قاع البحر ... ... للدكتور أنور عبد العليم
٤٩ — الأزياء الشعبية ... ... للأستاذ سعد الخادم
٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٥١ — الفلك والحياة ... ... للدكتور عبد الحميد سماحة والدكتور عدلى سلامة
٥٢ — نظرات فى أدبنا المعاصر ... للدكتور زكى المحاسنى
٥٣ — النيل الخالد ... ... للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤ — قصة التفسير ... ... للأستاذ أحمد الشرباصى
٥٥ — القرآن وعلم النفس ... ... للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٥٦ — جامع السلطان حسن وماحوله... للأستاذ حسن عبد الوهاب
٥٧ — الأسرة فى المجتمع العربى بين الشريعة الإسلامية والقانون للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى
٥٨ — بلاد النوبة ... ... للدكتور عبد المنعم ابو بكر
٥٩ — غزو الفضاء ... ... للدكتور محمد جمال الدين الفندى
٦٠ — الشعر الشعبي العربى ... ... للدكتور حسين نصار
٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه ... للدكتور جمال محمد محرز
٦٢ — الميكروبات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح

٦٣ — عالم الأفـلاك ... ... للدكتور إمام ابراهيم أحمد
٦٤ — انتصار مصر فى رشيد ... ... للدكتور عبد العزيز رفاعى
٦٥ — الثورة الاشتراكية (قضايا ومناقشات) للأستاذ أحمد بهاء الدين
٦٦ — الميثاق الوطنى قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
٦٧ — عالم الطير فى مصر ... ... للأستاذ احمد محمد عبد الخالق
٦٨ — قصة كوكب ... ... للدكتور محمد يوسف موسى
٦٩ — الفلسفة الإسلامية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٧٠ — القاهرة القديمة وأحياؤها ... للدكتورة سعاد ماهر
٧١ — الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء للأستاذ محرم كمال
٧٢ — قرطبة فى التاريخ الإسلامى للأستاذ محمد محمد صبح والدكتور جودة هلال
٧٣ — الوطن فى الأدب العربى ... للأستاذ ابراهيم الابيارى
٧٤ — فلسفة الجمال ... ... للدكتورة أميرة حلمى مطر
٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار ... للدكتور جلال يحيى
٧٦ — دورات الحياة ... ... للدكتور عبدالمحسن صالح
٧٧ — الإسلام والمسلمون فى القارة الأمريكية للدكتور محمد يوسف الشواربى
٧٨ — الصحافة والمجتمع ... ... للدكتور عبد اللطيف حمزة
٧٩ — الوراثة ... ... للدكتور عبد الحافظ حلمى
٨٠ — الفن الإسلامى فى العصر الأيوبى للدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق
٨١ — ساعات حرجة فى حياة الرسول للأستاذ عبد الوهاب حمودة
٨٢ — صور من الحياة ... ... للدكتور مصطفى عبد العزيز

٨٣ — حياد فلسفى ... ... للدكتور يحيى هويدى
٨٤ — سلوك الحيوان ... ... للدكتور أحمد حماد الحسينى
٨٥ — أيام فى الإسلام ... ... للأستاذ أحمد الشرباصى
٨٦ — تعمير الصحارى ... ... للدكتور عز الدين فراج
٨٧ — سكان الكواكب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٨٨ — العرب والتتار ... ... للدكتور إبراهيم أحمد العدوى
٨٩ — قصة المعادن الثمينة ... للدكتور أنور عبد الواحد
٩٠ — أضواء على المجتمع العربى للدكتور صلاح الدين عبد الوهاب
٩١ — قصر الحمراء ... ... للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٩٢ — الصراع الأدبى بين العرب والعجم للدكتور محمد نبيه حجاب

الثمن قرشان فقط

مطابع دار القلم بالقاهرة